

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل(ط1):35087710

رقم التسجيل(ط2):35086607

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر LMD، تخصص: لسانيات عامة

بعنوان:

قضايا الإعجاز اللغوي القرآني
بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي

إعداد الطالبتين:

- ربيعة بوشنافة.

- لبنى ربيعي.

أمام لجنة المناقشة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
1	د/ بلخير ارفيس	أستاذ	جامعة المسيلة	رئيساً
2	د/ محمد عرباوي	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	مشرفاً ومقرراً
3	د/ أمينة رقيق	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	ممتحناً

السنة الدراسية: 1443/1444 هـ. 2022/2023 م.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Bouzaf - M'sila

التصريح الشرفي

الخاص بالتزام قواعد النزاهة العلمية لإنجاز البحث

أنا المصفي أسفله السيد **ريجة بوشنافة** (الصفة: طالب . باحث . باحث دائم)

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم 409436045 الصادرة عن بلدية جيل مساعد بتاريخ 23 - 05 - 2023

المسجل بكلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي والمكلف بإنجاز بحث (مذكرة تخرج ، مذكرة

ماستر . أطروحة : دكتوراه) عنوانه **قضايا الإعجاز اللغوي القرآني بين عبد القاهر**

البرياتي ومطعمي شهادة الرافعي.

تحت إشراف الأستاذ **محمد عرابوي.**

أصرح بشرفي أنني ألتزم بالمعايير العلمية والمنهجية والأخلاقية والنزاهة

الأكاديمية في إنجاز البحث المسجل أعلاه، وأتحمل مسؤولية مخالفة ذلك.

التاريخ 25 - 06 - 2023



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Bouzaf - M'sila

التصريح الشرفي

الخاص بالتزام قواعد النزاهة العلمية لإنجاز البحث

أنا المفضي أسفله السيد البنى ربيع الصفة (طالب ، باحث ، باحث دائم)

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم 529668 الصادر عن الماحل بتاريخ 2022/03/02

المسجل بكلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي والمكلف بإنتاج بحث (مذكرة تخرج ، مذكرة
ماجستير ، أطروحة دكتوراه) عنوانه قضايا إيماء عجاز اللغوي القرآني بين
عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي .
تحت إشراف الأستاذ محمد عربياوي .

أصرح بشرفي أنني ألتزم بالمعايير العلمية والمنهجية والأخلاقية والنزاهة
الأكاديمية في إنجاز البحث المسجل أعلاه، وأتحمل مسؤولية مخالفة ذلك .

التوقيع البنى ربيع

التاريخ 2023 / 06 / 19

مصادقة البلدية



إهداء

إلى من رضاها غايتي وطموحي فأعطتني الكثير ولم تنتظر الشكر،

صاحبة البصمة الصادقة في حياتي

أمي الحبيبة أطل الله في عمرها.

إلى رمز الرجولة والتضحية

إلى من دفعني إلى العلم وبه أزداد افتخاراً

أبي أطل الله في عمره.

إلى الذين عشت معهم حلاوة الأيام

إخوتي حفظهم الله ورعاهم.

إلى من تقاسمت معهم أجمل اللحظات

صديقاتي وفقهم الله.

إلى كل عُشاق لغة الضاد الذين أحبوا لغة، وصانوها تُراثاً.

ريحة.

إهداء

إلى من باع راحة شبابه ليضيء لنا الطريق

إليك أبي الغالي حفظك الله وأطال في عمرك

إلى من وُضِعَتْ تحت قدمها الجنة فكانت نبع الحنان ومنبع الأمان وسر السعادة

إليك أُمي الحبيبة حفظك الله وأطال في عمرك.

إلى ورود بيتنا إخوتي الأعزاء حفظهم الله ورعاهم.

إلى من رافق مسيرتي الدراسيَّة، وإلى كل من وسعه قلبي ولم تسعه ورقتي.

لبنى.

الشكر والعرفان:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل، 19]

نشكر الذي خلقنا وشقَّ سَمْعِنَا وَبَصَرِنَا بحوله وقوته، الله تعالى، نَحْمَدُهُ حَمْدًا
كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن وفقنا لإتمام هذا البحث، الذي يُعتبر قطرة من بحر العلم.

واعترافًا مِنَّا بالجميل وتقديرًا لحسن الصنيع نتقدم بفائق الشكر والامتنان

للأستاذ الدكتور المشرف محمد عرياوي، الذي لم يبخل علينا بالنصائح

والتوجيهات والذي كان دليلنا الأول في إنجاز هذا البحث.

كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من مدَّ لنا يد العون والمساعدة في مجال

البحث من قريب أو بعيد.

مقدمة

مقدمة:

القرآن الكريم معجزة الله الخالدة وحبته البالغة، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزل على قوم عرفوا بعُلُوِّ درجات البلاغة والبيان وحُسْنِ الأداء وجمال المنطق وسلاسة التعبير، فلما سمعوه انبَهَرُوا وَدُهَلُوا وهم ملوك الفصاحة وأساطينها ووجدوا أنفسهم عاجزين أمام تحديه والإتيان بقرآن مثله ثم بعشر سورٍ ثم بسورةٍ من مثله، ومن بديع إعجازه أنه كتاب لا تتقضي عجائبه، ولا يَمَلُّ منه القارئ والسامع والباحث فلا يزيد القارئ إلا حُبًّا لمزيد القراءة، والسامع إلا طلبًا لمزيد السمع، والباحث إلا شغفًا لتكرار البحث والدراسة، وهذا التحدي سيظل قائمًا إلى أن تقوم الساعة ويكفي لبيان هذا أن الله تعالى أنزل الكتاب وتكفل بحفظه ونحن اليوم نتلوه بالحروف نفسها التي نزل بها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر، 09]

لقد تعددت وتشعبت الدراسات التي اهتمت بقضية الإعجاز القرآني، ففي نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث بدأ الحديث عن قضية الإعجاز في القرآن الكريم والتعمق في خباياه وأسراره، ونتيجة هذا التعدد والتعارض في الحجج، ظهرت العديد من الآراء فذهب المعتزلة إلى القول بالصرفة، وذهب الأشاعرة إلى أن الإعجاز ما به من الإخبار عن الغيبيات وهناك من يقول إن إعجاز القرآن في معانيه دون ألفاظه إلا أن هناك من يرى أنه يكمن في نظمه، ابتداءً بالجاحظ والخطابي والباقلاني، ومرورًا بعبد القاهر الجرجاني وختامًا بالرافعي وعبد الله دراز والسامرائي وغيرهم كثير من المتخصصين المعاصرين وفضلاً عن المفسرين كالزمخشري وابن عاشور، وما ذكرناه من أسماء إنما على سبيل التمثيل لا الحصر.

فالإعجاز معناه إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهذا التعجيز ليس مقصودًا لذاته بل المقصود ما يلازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حقٌّ وأن الرسول الذي جاء به صدق.



ونظراً لتعدد هذه الآراء واختلافها فقد رأينا أن نتعمق أكثر في وجه من وجوه الإعجاز وهو الإعجاز اللغوي في القرآن ومنه جاء بحثنا الموسوم "قضايا الإعجاز اللغوي القرآني بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي".

1- إشكالية البحث:

ينطلق هذا البحث من تساؤل معرفيٍّ وجيه، يمثل الإشكال الرئيس الذي تدور عليه هذه المقاربة، وهو: ماهي أهم قضايا الإعجاز اللغوي القرآني بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي؟

وتتفرع عن هذا السؤال تساؤلات أخرى أهمها:

- ما هو مفهوم الإعجاز اللغوي القرآني ووجوهه؟ وأهميته؟ وفيم تتمثل مسالك السابقين فيه؟

- ما هي أبرز قضايا الإعجاز اللغوي القرآني عند الجرجاني وعند الرافعي؟

- ماهي أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف في قضايا الإعجاز اللغوي المُعالَجة من طرف الجرجاني والرافعي؟

2- دوافع اختيار الموضوع:

ولقد دفعتنا للبحث في هذا الموضوع عدّة أسباب؛ لعلّ أهمها:

- الرّغبة في الاطّلاع على المزيد في هذا العلم الشريف، علم الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وقد اخترنا الجانب اللغوي لأنّه الأكثر وروداً في الكتاب العزيز.

- إبراز بعض جهود علماء اللغة في قضية الإعجاز بدءاً بالقدامي "الرماني، الباقلاني، الخطابي، عبد القاهر الجرجاني وصولاً إلى المحدثين كمصطفى صادق الرافعي وعبد الله دراز وغيرهم".

- الاستفادة من عقد مقارنة فكرية بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق

الرافعي.

- بيان أهمية الإعجاز اللغوي خصوصاً في واقعنا المعاصر، وإثباته يترتب عنه إثبات جميع وجوه الإعجاز الأخرى.

3- أهمية الموضوع:

تتبع أهمية الموضوع من أنّ القرآن سيظل سبباً رئيساً لانبهار العلماء ببيانه المعجز، ولغته الراقية، وتأثيره العجيب على الناس، ونفي الشبه عنه التي أثارها الملحدون، لذا فهو جدير بالبحث والدراسة لاستخراج كنوزه التي لا تتفد، وأسراره التي لا تنتهي، وكذا الاطلاع بشيء من التفصيل على جهود علمين من أعلام أهل اللغة (عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي) في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم.

4- بنية البحث:

لقد حاولنا أن نرسم للموضوع معالم خطّة، تصل به إلى النتائج المرجوة، وتحقق الغرض المنشود، وقد جاءت في: مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة. على النحو الآتي:

- مقدمة: تناولنا فيها التعريف بالموضوع بشكل عام، وتشمل طرحاً للإشكالية التي نريد الإجابة عنها، وبيان أهمية البحث، وأسباب اختياره والدراسات السابقة له، والمنهج المتبع لمقارنته، وهيكل البحث، وأهم المصادر والمراجع المعتمدة.

أمّا الفصل الأول فقد كان بعنوان " الإطار النظري للإعجاز اللغوي القرآني " تعرضنا فيه إلى المفهوم اللغوي والاصطلاحي للإعجاز اللغوي القرآني، ثمّ انتقلنا إلى أهم وجوه الإعجاز اللغوي، وشروطه، وموضحين أهميّة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ومسالك السابقين في الإعجاز القرآني.

أمّا الفصل الثاني فخصصناه للكشف عن أهم " قضايا الإعجاز اللغوي القرآني عند عبد القاهر الجرجاني " تطرقنا فيه إلى نبذة مختصرة عن حياة عبد القاهر الجرجاني، ثمّ عرضنا دلائل الإعجاز التي ردّ بها الجرجاني على الشبهات الموجهة للقرآن، بالإضافة إلى الإعجاز اللغوي التركيبي عند الجرجاني والذي يتمثل في مجموعة من القضايا

(التقديم والتأخير، الذكر والحذف، الفصل والوصل) وتطرقنا كذلك إلى الإعجاز اللغوي البياني عند الجرجاني من (استعارة، وكناية، وتشبيه وتمثيل).

والفصل الأخير جاء بعنوان " قضايا الإعجاز اللغوي عند مصطفى صادق الرافعي"، ابتدأناه بنبذة مختصرة عن حياة الرافعي، ثم عَرَضْنَا حقيقة الإعجاز عنده، ثم مواطن الإعجاز اللغوي القرآني من وجهة نظره، وهي الإعجاز الأسلوبي و الإعجاز الصوتي.

خاتمة: أما الخاتمة فجاءت كحوصلة لأهم النتائج التي توصلنا إليها تلتها قائمة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

5- المنهج المعتمد:

لقد اقتضت طبيعة الموضوع إتباع المنهج الوصفي لكوته الأنسب لجمع مادة البحث وشرحها وتحليلها والتدليل عليها.

6- الدراسات السابقة:

إذا نظرنا إلى الدراسات السابقة نجد أن هناك ثلاثة أنواع من بينها الدراسات المؤسسة والدراسات المضيفة، والدراسات المرجحة أي إنها ترجح رأياً عن آخر، وبحثنا يندرج ضمن الدراسات المضيفة لا المؤسسة، ومن هذه الدراسات نذكر ما يلي:

- بن نعوم سعاد، أسس الإعجاز القرآني عند مصطفى صادق الرافعي، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2015-2016م.

وعُنيَت هذه الدراسة بالبحث عن حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي والتعرض لمنهجه بالإضافة إلى بيان التأسيس الذي بنى عليه الرافعي وجوه الإعجاز ورؤيته للنظم القرآني وأهم التطبيقات التي أوردتها في كتابه.

- عبد العزيز باجي، عبد الغفار بن نعمة، منهج الجرجاني في الكشف عن وجوه الإعجاز القرآني، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران1، مج19، العدد01، أبريل2018م.

وقد تعرضت هذه الدراسة إلى مفهوم الإعجاز عند الجرجاني، ومفهوم النظم، وأقسامه، بالإضافة إلى أسس الجرجاني في فهم الإعجاز، والمنهج الذي اتبعه في إثبات ذلك.

- محمد عاشق مؤنعم، النظم بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي نحو رؤية متكاملة للإعجاز، جامعة دار الهدى الإسلامية، 2022م.
هذه الدراسة عبارة عن مقال حاول فيه الباحث بيان مقارنة منظور الإعجاز والنظم عند عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي، وتطرق فيه إلى منهج الرجلين، وحقيقة الإعجاز بينهما، بالإضافة إلى الأدب والبلاغة.

7- أهم المصادر والمراجع:

وأما المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها فهي متنوعة وغنية في مجال الإعجاز نذكر منها: كتاب دلائل الإعجاز وكتاب الرسالة الشافية وكتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرماني والخطابي والجرجاني، الإعجاز والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي.

8- الصعوبات:

لابد لأي بحث أن تواجهه جملة من الصعوبات والعراقيل، أهمها:

- كثرة الآراء وتنوعها وتعدد الباحثين في مجال الإعجاز.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذنا المشرف د. محمد

عرباوي الذي بذل جهده في رعاية هذا البحث من توجيه ونصح وإرشادات.



مقدمة

كما نتقدم بالشكر إلى كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد من مسؤولي وأساتذة قسم اللغة والأدب العربي بجامعة محمد بوضياف المسيلة.

ونتقدم بالشكر الخاص إلى لجنة المناقشة المؤقرة التي تَجَسَّمَت عناء السفر، وأخذت على عاتقها مسؤولية قراءة هذا البحث لأجل تقويمه وتقييمه، وإننا لنسأل الله لها التوفيق والسداد، ولنا الاستفادة والتبصر في ضوء نصحهم وتوجيههم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



الفصل الأول:

الإطار النظري للإعجاز اللغوي القرآني

تمهيد

أولاً: مفهوم الإعجاز.

ثانياً: وجوه الإعجاز اللغوي القرآني.

ثالثاً: شروط الإعجاز اللغوي القرآني.

رابعاً: أهمية الإعجاز اللغوي.

خامساً: مسالك السابقين في الإعجاز القرآني.

الفصل الأول: الإطار النظري للإعجاز اللغوي القرآني

تمهيد:

سنتناول في هذا الفصل مجموعة من النقاط الخاصة بالإعجاز اللغوي القرآني حيث نذكر المفهوم اللغوي والاصطلاحي للإعجاز اللغوي، ثم ننتقل إلى توضيح أهم وجوه الإعجاز اللغوي مثل الإعجاز البياني، الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي، بالإضافة إلى أهمية الإعجاز، وشروطه، ومسالك السابقين في هذه القضية.

أولاً: مفهوم الإعجاز:

1- لغة:

ورد في معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس في مادة (ع. ج. ز): **الْعَيْنُ وَالْحَيْمُ وَالزَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الضَّعْفِ، وَالْآخَرُ عَلَى مَوْخَرِ الشَّيْءِ، فَالْأَوَّلُ عَجَزٌ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فَهُوَ عَاجِزٌ، أَي ضَعِيفٌ. وَيُقَالُ أَعْجَزَنِي فُلَانٌ، إِذَا عَجِزْتُ عَنْ طَلْبِهِ وَإِدْرَاكِهِ.**

وَأَمَّا الْأَصْلُ الْآخَرُ فَالْعَجْزُ: مُوَخَّرُ الشَّيْءِ، وَالْجَمْعُ أَعْجَازٌ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: عَجَزَ الْأَمْرُ، وَأَعْجَازَ الْأُمُورِ. وَيَقُولُونَ: لَا تَدَبَّرُوا أَعْجَازَ أُمُورٍ وَلَّتْ صُدُورُهَا¹.

وجاء في معجم مختار الصحاح في مادة (ع. ج. ز): **العَجْزُ بِضَمِّ الجِيمِ مُوَخَّرُ الشَّيْءِ يُذَكَّرُ وَيؤنثُ وَهُوَ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ جَمِيعًا وَجَمَعُهُ أَعْجَازٌ، وَالْعَجِيزَةُ لِلْمَرْأَةِ خَاصَّةً، وَالْعَجْزُ الضَّعْفُ وَأَعْجَزَهُ الشَّيْءُ فَاتَهُ، وَعَجَزَهُ تَعَجِيزًا ثَبَّتَهُ أَوْ نَسَبَهُ إِلَى الْعَجْزِ، وَالْمُعْجِزَةُ وَاحِدٌ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ².**

ومن خلال التعريفات الواردة في المعاجم نجد أن معنى العَجْزُ يَدُلُّ على الضعف وعدم القدرة على الشيء.

¹ ابن فارس أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د ط)، 1399هـ-1979م، ج6، مادة (ع ج ز)، ص232-233.

² الرازي زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط5، 1420هـ-1999م، مادة (ع ج ز)، ص200.

كان من المهم قبل الخوض في تعريف الإعجاز أن نُنَبِّه أن مصطلح الإعجاز أو المعجزة ليس له ورود، لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية وما ورد في هذا المعنى نجد:

- لفظ البيِّنة كما في قوله تعالى: ﴿وَالْيَ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف، 72] ومعنى هذا أن لفظ البيِّنة هو دليل على مصطلح الإعجاز.

كما استعمل القرآن تارة لفظ الآية في صدد إعطاء الدلائل للرسول عليهم السلام لمحاكاة الأقسام، يقول تعالى: ﴿وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام، 110]

وتارة يستخدم لفظ البرهان، قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص، 32] والبرهان بيان للحجة، وهو أوكد الأدلة ويقضي التصديق لا محالة¹.

كما يأتي التعبير عن المعجزة أحياناً بلفظ السلطان، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم، 13].

2- معناه اصطلاحاً:

لقد ظهر مصطلح الإعجاز في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث، وذلك عندما ظهر البحث في قضية إعجاز القرآن الكريم ومن تعريفاته التي وردت في كتب الإعجاز نجد:

¹ مصطفى مسلم، مباحث في علوم القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1416هـ-1996م، ص13-14.

يُعرف الإمام الجرجاني في كتابه القِيم التعريفات الإعجاز عموماً بقوله: "الإعجاز في الكلام أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"¹.

فالإعجاز حسبه هو الخروج عن الطرق المألوفة في الكلام بحيث تكون هناك طريقة متميزة عن تلك الطرق في جميع المستويات.

وقد عرف فضل حسن عبّاس إعجاز القرآن بقوله: " إنَّ معنى إعجاز القرآن عجز الناس عن أن يأتوا بمثله، فكلمة إعجاز مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله فكأنَّ التقدير أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ومعنى ذلك أنَّ هذا القرآن الكريم دلَّ بما فيه من بيان على أنَّه من عند الله، وثبَّت عجز الناس عن أن يأتوا بمثله"².

أمَّا المعجزة فهي أمرٌ خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يُظهره الله تعالى على يد رسله³.

فمعنى " خارقةٌ للعادة ": أي غير خاضعة للمقاييس البشرية، والسُنن الكونية، والأسباب المادية، ولذلك لا يمكنُ تفسيرها بالأسباب المادية، ولا قياسها بها، وهي " سالمة من المعارضة " أي لا يقدرُ الناسُ المعارضون للنبيِّ الذي أتى بها على معارضتها وإزالتها ونقضها وإبطالها، ولو استخدموا في ذلك كلَّ الأسباب المادية التي يقدرُون عليها⁴.

3- مصطلح الإعجاز اللغوي:

- إن المتأمل في الدراسات التي تناولت الإعجاز القرآني لدى القدامى وعند المحدثين ليجد أن ما يطلقونه عليه هو مصطلح الإعجاز البياني وليس اللغوي ولا نجد هذا الأخير عندهم إلا نادراً ولعل مرد ذلك إلى عدم اتضاح معالم المصطلحين وهذا يظهر في:

¹ الشريف الجرجاني علي بن محمد بن علي الزين، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د ط)، 1413هـ، ص30.

² فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط8، 1436هـ-2015م، ص27.

³ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1394هـ-1974م، ج4، ص3.

⁴ صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، دار عمّار، عمّان - الأردن، (د ط)، (د ت)، ص23.

- التداخل الحاصل في مباحث الميدانيين، وأغلب من كتب في الموضوع استعمل مصطلح الإعجاز البياني.

- بعض الدراسات لا تتطرق مطلقاً للإعجاز اللغوي، وتكتفي بالتنويه بالإعجاز البياني¹.

والمتمأمل أيضاً يجد إشارات تعكس وعي بعض الدارسين بمفهوم الإعجاز اللغوي، نذكر من ذلك قول مصطفى صادق الرافعي: " من أعجب ما يحقق الإعجاز، أنّ معاني هذا الكتاب الكريم، لو أُلِّسَتْ ألفاظاً أخرى من نفس العريّة، ما جاءت من نمطها وسمتها، والإبلاغ عن ذات المعنى، إلاّ في حكم الترجمة، ولو تولى ذلك أبلغ بلغائها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فقد ضاقت اللغة عنده على سعتها، حتى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه بأعيانها وتركيبها"².

و يُبيّن الرافعي أنّ سر الإعجاز في الألفاظ القرآنية، أن تكون بأعيانها، أي أنّها اللفظ نفسه هو المقصود في السياق القرآني لا غيره ولو أتيت له بكل مرادف ما وفى المعنى المراد.

كما أن من أمتن العبارات التي تتبّه على أصول الإعجاز اللغوي، قول الدكتور مناع القطان: " وحيث قلب الانسان بصره في القرآن وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي.

يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع، بجرس حروفه، حيث يسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وعُنَاتِهَا، وفواصلها ومقاطعها، فلا تمل أذنه السماع، بل لا تَقْتَأُ تطلب منه المزيد، ويجد ذلك في ألفاظه التي تقي بحق كل معنى في موضعه، لا يَنْبُو منها لفظ يقال أنّه زائد، ولا يعثر الباحث على موضع يقول أنّه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص"³.

¹ العيد حذيق ، جهود أهل السنة والجماعة في الاعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم ، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1، 2010-2011م، ص34.

² مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تح: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، (د ط)، 1424هـ-2003م، ص203.

³ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط11، 2000م، ص259.

ومما سبق ذكره يتبين أن مفهوم الإعجاز اللغوي عند المحدثين يتمحور أساساً حول المفردة القرآنية في تَمَظْهُرَاتِهَا المختلفة، ومنه يمكن أن نقف من ذلك على تحديد مفهوم لمصطلح الإعجاز اللغوي كما يلي:

الإعجاز اللغوي: " هو العلم الذي يهتم بإبراز إعجاز المفردة القرآنية، من حيث شكلها ومضمونها وغايتها"¹؛ إنَّ هذا التعريف يجعلنا ندرك أنَّ موضوعات الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم تدور كلها في فلك المفردة القرآنية بكل ما يتعلق بها منذ انتقائها من المعجم إلى استعمالها في موضعها مع كل ما تتسم به من خصائص صوتية و صرفية وبلاغية.

ثانياً: وجوه الإعجاز اللغوي القرآني.

1- الإعجاز البياني:

لقد تعددت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ومن بين هذه الوجوه نجد الإعجاز البياني الذي يُعدُّ أساس الإعجاز ومحوره الرئيس، فما من إعجاز قرآني مستجد إلاَّ ومستنده بلاغة البيان والنظم القرآني في التعبير عن موضوع الإعجاز، وذلك لأنَّ العرب في العصر الجاهلي كانوا في أرفع وأرقى وأسمى مستوى في البيان والفصاحة والبلاغة ونظراً لهذا المستوى البياني الرفيع، كان البيان هو الموضوع الذي تحدى به القرآن العرب بما يتقنونه ويجيدون فيه، ولما طالبهم بمثل القرآن، أراد مثله في البيان والبلاغة والفصاحة. ولهذا قال لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود، 13] وكلمة (مُفْتَرِيَاتٍ) ذات دلالة هامة في التحدي والعجز والإعجاز، فهي تشير إلى أنَّ المطلوب منهم عشر سورٍ مثل سور القرآن في بيانها وفصاحتها وبلاغتها وأسلوبها، وليس مثل سور القرآن في علومها وموضوعها وأخبارها².

فتحدي العرب كان تحدياً بيانياً، وكانت المثليَّة المطلوبة منهم مثليَّة بيانية فلما عجزوا من المعارضة كان عجزهم بيانياً، وبهذا يكون القرآن قد أعجزهم إعجازاً بيانياً.

¹ العيد حذيق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي و البياني للقرآن الكريم، ص37.

² ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ص136-137.

وتعرف الدكتورة عائشة عبد الرحمن الإعجاز البياني للقرآن الكريم بأن: " ما من لفظٍ فيه أو حرف يمكن أن يقوم مقامه غيره بل ما من حركة أو نبرة لا تأخذ مكانها في ذلك البيان المعجز"¹.

ويبدو واضحاً أنّها تفهم دراسة الإعجاز على أنّها انصراف نحو بيان أسرار الحرف والكلمة والتعبير في القرآن الكريم.

2- الإعجاز الصوتي:

من وجوه إعجاز القرآن الكريم إعجازه الصوتي، وذلك لما يقع فيه من التآلف، سواء في أصواته المشكلة للألفاظ أو في ألفاظه المشكلة لجمله، على نحو لا نجده إلا في النظم القرآني.

والتآلف الصوتي عند اللغويين العرب القدامى: " هو تعديل الحروف في التآليف"².

وهو يكون حينما يتجنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تآليف الكلام يقول الخفاجي: "وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ولاشك في أن الألوان المتباينة إذا جُمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ولقُرِب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود"³.

يكون ذلك في الكلمة الواحدة، أو في اجتماعها مع أختها في الكلام، ويذكر الرماني أن التآليف على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا فالتآليف المتنافر كقول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ⁴

¹ عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط3، (د ت)، ج1، ص265 .

² الرّماني أبو الحسن علي بن عيسى ، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله وأحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، (د ت)، ص94.

³ الخفاجي أبو محمد بن سنان ، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ-1982م، ص 64.

⁴ الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في القرآن، ص95.

وذكروا أن هذا من أشعار الجن لأنه لا يتهياً لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتبع، وإنما السبب في ذلك ما ذكرنا من تنافر الحروف.

وأما التأليف في الطبقة الوسطى - وهو من أحسنها - كقول الشاعر:

رَمَنْتِي وَسِتْرُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمٍ¹

والملائم في الطبقة العليا القرآن كله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والملائم في الطبقة الوسطى².

والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة.

تتكون الكلمة من مجموعة أصوات ذات معنى، وهذه الأصوات إما أن تكون نغمة عذبة على السمع، وإما أن تكون نغمة سيئة الوقع على الأذان ويعود ذلك إلى مجموعة من العوامل التي تؤثر في سهولة النطق بالكلمة وعذوبتها، نذكر منها تلاؤم مخارج حروف الكلمة، وعدد حروفها، وتناسق حركات هاته الحروف، وأيضاً ملاءمة اللفظة لنوع الكلام، وكلمات القرآن الكريم كلها من النوع المتألف، وتآلف الكلام فيه وصل إلى درجة الإعجاز³، وأهمّ العوامل التي تتحكّم في مدى تآلف أصوات الكلمة هو تباعد مخارج الحروف أو تقاربها في الكلمة.

إن كان تباعد مخارج الحروف في الكلمة يؤدي إلى التنافر، وصعوبة النطق بها، فهذا ليس مطلقاً، وإنما يكون كذلك إذا ما اجتمع مع التباعد عدم ترتيب المخارج المتباعدة، وتآلف الأصوات في القرآن الكريم مع تباعد مخارجها إنما يعود لورودها مرتبة على حسب هذه المخارج، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْم﴾ في سورة الفيل، فحروفها متباعدة المخارج ومع ذلك فهي لا تنتقل على اللسان، وذلك لأن مخارج هذه الحروف مرتبة من

¹ أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة، تح: محمد محي الدين بن عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ج3، ص269.

² الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص96.

³ هارون نوح معابدة، التآلف الصوتي في القرآن الكريم، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، 2016، مج43، ص333.

الداخل إلى الخارج، فالهمزة تخرج من أقصى الحلق، واللام من أدنى حافتي اللسان، والميم من بين الشفتين¹.

كما أن تقارب مخارج الحروف من أسباب ثقل نطقها وغرابة إيقاعها، ومن أمثلة الثقل لتقارب المخارج كلمتا "الهُعُجُع" و "مُسْتَشْرَزَات" الواردتان في كلام العرب. وهذا التقارب حاصل في القرآن الكريم، ولذلك كانت معالجته عن طريق أحكام التجويد، وذلك بإدغام الحروف المتقاربة أو قلبها أو إخفائها وذلك بالنظر لمدى تقاربها. أما عناصر الإعجاز الصوتي الأخرى فهي:

1-2 - العدول الصوتي:

المقصود بالعدول الصوتي هو الخروج والميل عن قواعد اللغة المثالية، والمثالية في الأصوات توجد في الصوت المفرد، وفي الصيغ الصرفية، وفي تركيب الجمل². لقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الألفاظ الخارجة عن القياس حيث يتمكن الخبير باللغة من اكتشافها أثناء سماعها أو قراءتها، لأنها تجذبه لغرابتها أو خروجها عن أصل الوضع، لاتخاذها صورة مخالفة لبنييتها المألوفة.

وإذا نظرنا إلى أنواع العدول الصوتي نجدها كثيرة ومتعددة أبرزها العدول الصوتي بالإبدال، ومن مظاهره ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية، 22] فلفظ (مُصَيِّرٍ) من مادة (ص. ط. ر) ولذلك يُلحظ العدول الصوتي من خلال إبدال السين بالصاد، وتبدو المناسبة واضحة بين طبيعة الصوت المُفَخَّم والموقف الذي تدل عليه الآية، فالخطاب موجّه إلى الرسول ﷺ أي: لست يا رسول الله بمتسلط عليهم، تجبرهم على الإيمان أو تكرههم عليه، وهي دعوة من الله إلى نبذ التجبر على الناس وأمرهم بالقوة، لأن الهداية لا تكون إلا من عند الله، فلما كانت السيطرة تدل على التجبر والقوة جاءت اللفظة بالصاد

¹ هارون نوح معابدة، التآلف الصوتي في القرآن الكريم ، ص333.

² دفة بلقاسم، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم- دراسة دلالية -، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر -بسكرة-، جوان 2009، ص10.

المفخمة المجسدة للموقف بدلاً من السين المهموسة التي تدل في الغالب على اللين والهمس¹.

2-2- إحياء الصوت بالمعنى:

يُقصد بإحياء الصوت بالمعنى: أن يوحى جرس أصوات الكلمة بمعناها الذي رصد لها في المعجم، فيلتقي الجرس والعرف عندئذ لا على مصادفة ومحض اتفاق، ولكن انتقاء اللفظ يكون عن عمد وحسن اختيار، وإن من بلاغة القرآن وتفرده الرائع في الدلالة: ارتباط الصوت بمعانيه ارتباطاً وثيقاً، فلقد فجر القرآن طاقات الصوت في العربية إلى أبعد مدى، بحيث إننا نتخيل - بل نكاد نرى- المشهد المعبر عنه إذا ما لامست أسماعنا كلماته فحين يُريد القرآن أن ينقل للناس صورة النار -على جهة التخويف والإنذار- وهي مُهْتَاجَةٌ وَمُعْتَاطَةٌ غَاضِبَةٌ، يختار الحروف الهادِية إلى هذه المعاني التي تصور بجرسها هذا العنف، وذلك الغضب، فالصورة الصوتية للحرف تشكل المادة الأولى للقيم اللفظية فمثلاً هذه [الظاء والشين] في (شواظ) من قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ ﴿33﴾ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن، 33-34] ويقول تعالى في وصف الجنتين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن، 65] فحرف الخاء يصور بغلظه، وصوت جرسه قوة الماء وكثرتة، إذ (النضخ) بالخاء أقوى من (النضخ) بالحاء فقد جعلوا (الحاء) لرقتها للماء الضعيف، و(الخاء) لغلظتها لما هو أقوى قياس المسموع من الأصوات على محسوس الأحداث².

3- الإعجاز الصرفي:

يُمثلُ المستوى الصرفي مستوى هاماً من مستويات التفسير والفهم لأحكام القرآن وتعاليمه، وبدون الالتفات إليه لا تستبين كثيراً من الدلالات والأغراض و المقاصد، ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما يتجاوزه إلى ما يقع في هذا المستوى من عدول عن بنيات الألفاظ،

¹ محمد الحسن مختار بلال، أحمد عثمان فضيل، ملامح من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، المجلة العلمية لجامعة الإمام المهدي، العدد 11، يونيو 2018، ص 54.

² محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار جيايد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1432هـ-2006م، ص 36.

وصيغتها ليُشكل جانباً آخر من جوانب الدقّة في التعبير عن المعاني القرآنية، وصبغها بمعالم الفنيّة والجمال إلى حدّ الإعجاز الذي تفرّد به الخطاب القرآني، ومثّل خاصية من خواصه التي لا ينفك عنها.

و إذا جئنا إلى تعريف الصرف نجده بأنّه: " علم يبحث في تصريف الكلمة وتغييرها من صورة إلى أخرى، نحو: كَرَمٌ، يُكْرِمُ، كَرِيمٌ، وكذلك يتناول التغيير الذي يُصيب صيغة الكلمة وبنيتها، لإظهار ما في حروفها من أصالة، أو زيادة، أو حذف، أو إدغام، أو إغلال، أو إبدال، أو يتناول دراسة تحويل الكلمة إلى أبنية مختلفة كالتصغير، والتكسير، والتنثية، والجمع، والاشتقاق، وبناء الفعل للمجهول، واسم الفاعل، واسم المفعول، وهو أيضاً، التنوين، والاشتقاق، ويُسمّى أيضاً: التصريف"¹.

وقد يكون استعمال الصيغ الصرفية اختياراً أو عُذولاً، ولذلك فإنّ الحديث عن الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم يقتضي تناول مظهرين وهما: الإعجاز في اختيار الصيغ ودلالاتها، والإعجاز في العدول من صيغة إلى صيغة.

3-1- الإعجاز الصرفي في اختيار الصيغ ودلالاتها:

أ- اختيار الصيغ الإسمية:

من أمثلة اختيار الصيغ الإسمية اختيار صيغة (فَعْلَانُ) مثل كلمة "الْحَيَوَانُ" الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت، 64] فالقرآن يُعبّر في هذا الموضع عن حياة الآخرة بالحيوان تمييزاً لها عن الحياة الدنيا التي هي في حقيقتها لهوٌّ ولعبٌ كما أشارت إلى ذلك الآية القرآنية، يقول البقاعي: "أي الحياة التامة الباقية العامة والوافية نفسها من حيث لا موت فيها ولا فناء لشيء

¹ راجي الأسمر، المعجم المفصل في علم الصّرف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ط)، 1418هـ-1997م، ص287.

من الأشياء، ولذلك أُختير هذا البناء الدال على المبالغة وحركته مُشعرة بما في الحياة من مطلق الحركة والاضطراب"¹.

ومن حسن اختيار الصيغة الصرفية في القرآن الكريم كذلك نجد اختيار صيغة المفعول في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة، 25] فقد اختيرت صيغة (مُطَهَّرَةٌ) وهي اسم مفعول من الفعل (طَهَّرَ) فَلَمَّ جاءت هذه الصيغة بدلاً من صيغة اسم الفاعل (طاهرة)؟ يقول الزمخشري "فإن قلت: هلاً قيل طاهرة؟ قلت: في (مُطَهَّرَةٌ) فخامة لصفتهنَّ ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأنَّ مطهراً طهَّرنَّ، وليس ذلك إلاَّ الله تعالى المرید بعباده الصالحين أن يخولهم كلَّ مزية فيما أعدَّ لهم"².

ب- اختيار الصيغ الفعلية:

ومن ذلك اختيار صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة، 87] فلماذا اختار صيغة الماضي في (كَذَّبْتُمْ)؟ والجواب عن ذلك أنَّ التكذيب حصل قبل محمد في أثناء رسالته ولذلك عبّر بالماضي أمَّا القتل فمحمد لا زال حياً وقد تكون الآية نزلت قبل محاولة قتله يقول الهنداوي في هذا الشأن: "والسرّ فيما أرى - والله أعلم - أنَّ النبوة خُتِمت بمحمد ﷺ، وقد كان تكذيبهم وقت الخطاب حاصلًا، فالتكذيب حصل قبل الخطاب ومن ثمَّ فالمضِيُّ في التكذيب على حقيقته ولا رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم يكذّبونه"³.

¹ البقاعي برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ج14، ص475.

² أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ-1998م، ج1، ص234.

³ عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم- دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية، بيروت، (د ط)، 1429هـ-2008م، ص118.

ومن حُسنِ اختيارِ الصيغِ الفعلية نجد الدلالات الفنية لتكرار صيغة المبني للمجهول، ومن ذلك ما جاء في كتاب الله تعالى في شأن المنافقين بعد ظهور الإسلام في المدينة، يقول الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [60] ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقَتْلُوا قَتْلًا﴾ [الأحزاب، 60] حيث وظّف تكرار المبني للمجهول في قوله تعالى (تُقِفُوا، أُخِذُوا، قُتِلُوا) لتعميم الفاعل وهذا بدوره يدلُّنا على مدى تمكن المسلمين في المدينة بعد انتصار المسلمين فيها على اليهود¹.

3-2- الإعجاز في العدول الصرفي:

العدول الصرفي في الاصطلاح هو: "ترك الصيغة المتوقعة إلى صيغة أخرى غير متوقعة فتحدث مفاجأة أسلوبية يَنجَرُّ عنها زيادة معنى لم يكن في الصيغة الأولى"².

ومن أشكال العدول الصرفي في القرآن الكريم:

أ- العدول من صيغة إلى أخرى:

إنَّ اختيار وزن الكلمة وصيغتها في القرآن الكريم لا يكون إلا على أساس مناسبتها للمعنى والغرض المقصود، وكذلك الشأن في العدول من صيغة لأخرى، ولهذا نرى في النص القرآني استعمالاً لبعض الصيغ وعدولاً عن الأخرى لما في ذلك من مناسبة للدلالة والمقصد.

ولنا أن نلاحظ ذلك في الكثير من الآيات القرآنية، فالله سبحانه يُعبِّر عن إنزاله للكتب (القرآن - التوراة - الإنجيل) بصيغتين مختلفتين، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران، 02] والسؤال: لِمَ جاءت الصيغتان من الفعل (نَزَلَ) مرة على وزن (فَعَلَ) ومرة على وزن (أَفْعَلَ)؟ وهو السؤال الذي طرحه

¹ عبد الحميد أحمد يوسف هنداي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة -، ص 218.

² طاهر براهيم، بلاغة العدول الصرفي في القرآن الكريم من خلال تفسير التحرير والتوير، مجلة حوليات، جامعة الجزائر، 01، العدد 31، 2012م، ص 182.

وأجاب عنه الزمخشري حيث يقول: " فإن قلت: لم قيل (نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) و(أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ)؟ قلت: لأنَّ القرآن نزل منجمًا، ونزل الكتابان جملة"¹.

فتضعيف الفعل مع القرآن (نَزَلَ) دليل على أنَّ التنزيل وقع مرارًا وتكرارًا بحكم أنه لم ينزل مرّة واحدة، وعدل عن التضعيف إلى الهمزة بالفعل (أنزل) لأنَّ تنزيل الكتابين كان دفعة واحدة وبذلك اختلفت الصيغتان لاختلاف النزول.

ب- العدول الاسمي:

يشمل العدول في الأسماء الجوانب الآتية: العدول في العدد، العدول في الجنس.

- **العدول في العدد:** يتراءى العدول في العدد ضمن عديد من الاحتمالات، نمثل لإحداها وهو العدول عن الإفراد إلى الجمع والعكس قد تأتي اللفظة القرآنية في موضع بصيغة الإفراد، ويعدل عنها في موضع آخر إلى صيغة الجمع ولكل حالة معناها المستقل تبعاً للسياق الذي وردت فيه، ومثاله العدول بين لفظي (السماء، السموات) حيث وردت لفظة (السماء) في عدد من الآيات مفردة، وفي مواضع أخرى عدل عن الإفراد إلى صيغة الجمع، فإذا أُريدَ العدد أتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة نحو قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد، 01] أي جميع سكانها على كثرتهم.

أما إذا أُريدَ الجهة عدل إلى صيغة الإفراد نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون، 18] إذ بيّن سبحانه أنَّ المطر ينزل من السماء بقدرة الله ورحمته، فبيّن جهة نزول الماء، لذا جاء بصيغة الإفراد².

- **العدول في الجنس:** وهو إما أن يكون على المؤنث إلى المذكر أو عن المذكر إلى المؤنث، ومثال الأول قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءِ

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، ج1، ص234.

² ماجدة صلاح حسن، العدول الصرفي في القرآن الكريم، المجلة الجامعة، كلية المعلمين، جامعة السابع من أبريل، العدد11، 2009، ص25.

مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿ [المزمل، 16] حيث وصف السماء بالوصف المذكر (مُنْفَطِرٌ) ولا يخلو ذلك من دلالة ينبغي ألا نقف في تحليلها عند تعليل الفراء بالجرأة حين قال "العرب تجترئ على تذكير المؤنث إذا لم تكن فيه هاء"¹.

ج- العدول الفعلي:

نتلخص صورته في العدول في زمن الفعل في العدول عن الماضي إلى المضارع، العدول عن المضارع إلى الماضي، العدول عن المضارع إلى الأمر العدول عن الأمر إلى المضارع، ومن الصورة الأولى العدول من صيغة الماضي إلى المضارع نجد الفعل (أتى) في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل، 01] يدل بصيغته الصرفية على المضي المطلق، في زمن انقضى، إلا أن وروده في السياق يفرض عليه دلالة سياقية يقتضيها السياق ويدل عليها وهي دلالة الاستقبال، لأن القرينة اللفظية " فلا تستعجلوه " في السياق النحوي التركيبي تشير بوضوح إلى أنه لم يقع بعد، ومع كونه فعلا ماضيا في الصيغة الصرفية فإننا لانفرغ هذه الصيغة الصرفية من دلالتها الزمنية ولا نخضعها للدلالة السياقية فقط، إذ لو كان ذلك هو المراد لجاءت الصيغة صريحة بقوله: سيأتي أمر الله، فعدل إلى صيغة الماضي لدلالة إضافية، فمن الجمع بين الدالتين الصرفية والنحوية، الإفرادية والتركيبية يمكننا معرفة سبب هذا العدول، إذ المراد هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى المضي وموظفة له في الوقت ذاته فكأن المقصود أن أمر الله سيأتي لا محالة مجيئا مقطوعا به، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل².

4- الإعجاز التركيبي:

¹ أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، المذكر والمؤنث، تح: رمضان عبد التواب، دار التراث، القاهرة، ط1، 1989، ص72.

² ماجدة صلاح حسن، العدول الصرفي في القرآن الكريم، ص29.

4-1- مفهوم حروف المعاني:

الحرف في الاصطلاح هو ما يدلُّ بنفسه على معنى في غيره، وهو أحد أقسام الكلم¹.
والحروف نوعان، منها حروف المعاني، وحروف المباني، أمّا حروف المعاني فهي التي تدلُّ على معاني جزئية وُضعت أو استعملت فيها، وسميت بذلك، لأنّها توصل معاني الأفعال إلى الأسماء، إذ لو لم يكن " من وإلى" في قولك " خرجت من البصرة " لم يفهم ابتداء خروجك وانتهائه وهذه الحروف قسيمة الأسماء والأفعال، أي تجيء مع الأسماء والأفعال لمعانٍ، وتكون عوضًا عن جمل وتفيد معناها بأوجز لفظ، فكل حروف المعاني تفيد فائدتها المعنوية مع الإيجاز والاختصار².

وحروف المباني هي حروف التهجي، أي حروف الهجاء الموضوعة لفرض التركيب لا للمعنى وهذه الحروف تُزاد في الكلم ويجعل المجموع دالاً على المعنى المقصود وهذه الحروف هي: ألف التثنية، وواو الجمع، وياء النسبة، وتاء التأنيث³.

4-2- العدول في حروف المعاني:

لحروف المعاني دور هام في إبراز مقاصد الكلام وأغراضه إذ تتوقف دلالات النظم وأسراره على إدراك مرامي الحروف، ومن بين هذه الحروف نجد حروف الجر وحروف العطف وهي كالآتي:

أ- العدول في حروف الجر

يبرز هذا العدول من خلال المغايرة في حروف الجر في السياق القرآني وذلك بمجيء بعض الأفعال متعديا بحرف ثم العدول عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه، وكذلك المغايرة لهذه الحروف في تَعَالَفَهَا بالأسماء في السياق، ومثال ذلك العدول عن (في) إلى (من) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا

¹ المرادي الحسن بن قاسم، الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، محمد نديم قاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1413هـ-1992م، ص20.

² محمود سعد، حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، ص12.

³ المرجع نفسه، ص12-13.

وَآكُسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿5﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ﴿6﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿7﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿8﴾ [النساء، 4-8] فقال ابتداء " وارضقوهم فيها" فأتى بحرف الجر (في) ثم عدل عنه إلى حرف الجر (منه) فقال " فارزقوهم منه " وسر هذا أن الآية الأولى هي خطاب للأولياء في أموال اليتامى بدليل قوله " وارضقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً " وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم" ففي قوله " وارضقوهم فيها " دعوة إلى استثمار أموال اليتامى وأن ينفق عليهم من أرباح المال لا من أصله، وهو ما أشار إليه الزمخشري بقوله " وارضقوهم فيها" واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فلا يأكلها الإنفاق¹.

وهذا المعنى ناشئ من تركيب الفعل (فارزقوهم) مع حرف الظرفية (في) فجعل الأموال ظرفاً للرزق ومكاناً له، في حين عدل عن (في) إلى (من) بعد ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء، 8] لأن المدفوع لذوي القربى واليتامى والمساكين حال حضورهم القسمة هو أصل مال التركة، فجاءت (من) التبعية للدلالة على إعطائهم من بعض المراث على سبيل المواساة والإحسان.

ب- العدول في حروف العطف:

لحروف العطف أهمية كبيرة في أداء وظيفة الربط في الجملة العربية، وتضفي هذه الحروف دلالات خاصة يكشف عنها السياق الوارد فيه، وقد قرر علماء اللغة أن لكل حرف دلالة

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ص20.

عامّة تختص به، والذي يهمننا في هذا الموضوع هو المخالفة والمغايرة الحاصلة بين حروف العطف في السياق القرآني، والدلالات التي تنتج عن هذا العدول، وسيكون تناولنا للعدول في حروف العطف مقتصرًا على أهمها وأكثرها ورودًا في التعبير القرآني وهي (الواو) و(الفاء) و(ثمّ) وذلك لكثرة ورود العدول بين هذه الحروف.

ومن أعجب ما لوحظ في القرآن فيما يخص استعمال حروف العطف، هو المغايرة في استخدام الفاء و(ثمّ)، بين قوله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَاطُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ﴾ [الأعراف، 191-195] فعطف طلب الكيد بـ (ثمّ) وعدم الإنظار بالفاء.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ 53 ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ 54 ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ [هود، 53-55] فعطف طلب الكيد بالفاء وعدم الإنظار بحرف المهلة.

ولعلّ السبب في ذلك أن سياق سورة الأعراف فيه تسفيه لهذه الاصنام التي اتخذوها أندادًا من دون الله تعالى ثم ارتفعت نبرة التحدي في الخطاب، فوجه الله تعالى الأمر لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يتحدى المشركين بأن يدعو هؤلاء الشركاء ويتضامنوا معهم في الكيد له وأمهلهم من الزمن ما يتيح لهم فرصة الاستعداد والاحتشاد له، فعطف الأمر بالكيد على الأمر بدعوة شركائهم بحرف المهلة، إمعانًا في الاستهانة بالشركاء، وعدم مبالاة بكيدهم، وجاء عطف عدم الإنظار بـ (الفاء) إغراقًا في التحدي والاستهانة حين لا يطلب لنفسه نفس المهلة للردّ

على كيدهم¹. فطلب معالجته بالقضاء عليه إن استطاعوا، وفي ذلك من التحقير والتّهكم ما لا يزيد عليه.

أما في سورة هود فقد ادّعى قوم هود أن آلهتهم المزعومة قد مست هود بسوء وأنها تضر وتنتفع، فعندئذٍ باشرهم بالتحدي السريع دون مهلة "لأنهم ما داموا يثبتون لآلهتهم هذه القدرة على إنزال الضّرّ به فليس بحاجة إلى أن يطلب منهم دعوتها، وإمهالهم لحشد قواهم، فطلب منهم التعجيل بالكيد له والقضاء عليه، فأدخل (الفاء) على الأمر بالكيد لتدل على طلب المبادرة به².

ثمّ عدل بعد ذلك إلى (ثمّ) ليعطي لهم ولآلهتهم المزعومة مهلة طويلة من الزمن حتى يبلغوا في الكيد غايته، وقد أثبتت الياء في (كيدوني) لتطيل زمن النطق بالكلمة مع طول النطق بـ (ثمّ) فيتسق طول النطق في التعبير مع طول الزمن في الإمهال.

5- الإعجاز الدلالي:

يمثل علم الدلالة واحداً من مستويات دراسة اللغة (المستوى الدلالي) لأنه يهتم بدراسة المعنى الذي تخلص إليه المستويات الأخرى، وبذلك فهو يهتم بدراسة معاني الكلمات، وعلى ضوء هذا المفهوم سنتناول مفردات قرآنية مقاربة ولكن الأسلوب القرآني الدقيق فرق بين هذه المفردات.

ومثال ذلك لفظتا (تستطع- تستطع) حيث إنّ كل زيادة في المبنى تعني الزيادة في المعنى، وقد وظّف القرآن الكريم هذه القضية اللغوية أبلغ توظيف قال تعالى: ﴿سَأْتِبُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف، 78] وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف، 82] وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام معروفة ففي البدء ثقل على موسى عليه السلام أن يصبر على الأعمال التي قام بها الخضر عليه السلام، وهي

¹ محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1414هـ-1993م، ص286-287.

² المرجع نفسه، ص287.

ثقب السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، لذلك استعمل القرآن الكريم (تستطع) الصيغة التامة البناء الأثقل وزنا من (تسطع) الناقصة البناء، لكن بعد أن قصَّ الخضر عليه السلام أسباب أفعاله و سرَّ ما قام به، سهل على موسى تقبلها وسهل صبره عليها، لذلك استعمل (تسطع) الأخف وزنا لحذف التاء منها¹.

ثالثاً: تحقق شروط الإعجاز في القرآن الكريم:

لقد أثبت القرآن الكريم إعجازه، وذلك لتوافر شروطه، وهي:

1- التحدي: فالقرآن الكريم تحدَّى العرب جميعاً، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وهم أرباب الفصاحة، والبيان شعراً ونثراً، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَّنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [13] فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [هود، 13-14] فلما عجزوا أن يأتوا بعشر سور مثله، تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من سوره، وهذا يشمل أيضا السور القصار، فعجزوا كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [23] فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة، 23-24] فلما عجزوا تحدَّى الإنس والجنَّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء، 88]

2- وجود الدافع الذي يدفع العرب لتحدي القرآن الكريم: لأنَّ الرسول ﷺ قد تحدَّاهم به، وسفَّه عبادتهم، وسخر من عقولهم، فهذا مما جعلهم حرصين أشدَّ الحرص على القرآن الكريم، وعلى ردِّه بأن يأتوا بمثله أو بعضه ليدحضوا حجته فعجزوا من تحدِّيه على الرغم من وجود هذا الدافع القوي لتحديهِ².

¹ عبد الجبار فتحي زيدان، إعجاز القرآن الكريم، دار الكتب والوثائق، بغداد، ط4، 1438هـ-2018م، ص24.

² المرجع نفسه، ص12-14.

3- عدم وجود مانع يمنع العرب من تحدي القرآن الكريم، ويتضح هذا من ثلاثة

جوانب:

3-1- جانب اللغة: فقد كانوا أبلغ الأمم لساناً، وكانوا قادة الفصاحة بشعرهم ونثرهم،

وقد نزل القرآن بلسانهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف، 02]

3-2- جانب المعنى: فقد كان العرب على بصيرة وخبرة وذكاء، كما يتضح ذلك مما

أثّر عنهم، ودوّن من خطبهم ومنافراتهم التي اتسمت بسمو المعاني والبيان.

3-3- جانب الزمن: لم يُوضع شرط لأن يأتوا بمثل القرآن في يوم، أو أيام، بل القرآن

الكريم لم ينزل جملة واحدة، بل نزل مُنجمًا، سورة سورة، أو آيات آيات، حتى اكتمل في

غضون ثلاثة وعشرين سنة، فكان لهم مجال طويل من الوقت ليتمكنوا من تحديّه في ميدان

اللغة، على تحديه باستخدام السيف، والتجويع، والتهجير، فقد وجدوا اتّباع هذه الوسائل كلّها،

أيسر عليهم من أن يأتوا بمثل آية واحدة من آياته. فقد كان العرب يطربون لسماع القرآن

الكريم، لعظم بلاغته، وسمو بيانه، حتى بلغ تأثرهم به أن خرّوا لروعته ساجدين، وشغفوا

بتلاوته ليل نهار، مما دفع العلماء العرب إلى البحث عن معرفة سر هذا الإعجاز¹.

رابعاً: أهمية الإعجاز اللغوي:

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم أجمع عليه العلماء، وهو الذي تحدّى الله به العرب

الذين كانوا قد بلغوا الذروة في البيان شعراً، ونثراً، عند نزول القرآن الكريم وقد كانوا يُدركون

عجزهم وينتدقون بلاغته بذوقهم وسليقتهم، والإعجاز اللغوي موجود في كل سور القرآن

الكريم الطوال والقصار، خلافاً لأنواع الأخرى فالإعجاز فيها جزئي وليس كلي كالإعجاز

الغبيبي، أو التشريعي، أو العلمي، وهو أوسع أنواع الإعجاز ولسعته لم يستطع العلماء

الإحاطة به، وإنّما تركوا بابه مفتوحاً لحكم الذوق والقبول عند الناس، ومن أحسن ما قيل في

بيان أهمية دراسة الإعجاز ما نبّه إليه محمود شاكر بقوله: "ومعرفة معنى (إعجاز القرآن)

وما هو، وكيف كان، أمرٌ لا غنى عنه لمسلم ولا لدارس، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه

¹ عبد الجبار فتحي زيدان، إعجاز القرآن الكريم، ص 13-14.

امروً بغير تثبت في معناه، وتمكن من تاريخه، وتتبع للآيات الدالة على حقيقته¹، ومن هنا يتبين لنا أهمية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم والتي يمكن إبرازها في النقاط التالية:

1- إدراك الإعجاز القرآني والاستدلال عليه ردُّ لكل المزاعم والشبهات التي أثارها الكفار والملحدون حوله.

2- تدبُّر آي القرآن الكريم واستكناه أسرار إعجازه يعزز الاعتقاد بتفردا ومغايرتها.

3- الوقوف على مكانة اللغة العربية وأسرارها، ذلك أنّ العربية من بين سائر اللغات هي أشدها تمكناً وأشرفها تصرفاً وأعدلها ولذلك جعلت حليّةً لنظم القرآن الكريم، وعُلق بها الإعجاز وصارت دلالة في النبوة².

4- إدراك المسلم لعظمة القرآن: إنّ وقوف المسلم على الإعجاز اللغوي، يجعله يدرك عظمة كتاب الله تعالى المجيد ويزداد إيمانه ويقينه بمنزلته، وأنّه في منزلة من السمو والكمال لا يمكن لكلام أن يقرب إلى رتبته، وتبرز أهمية تعلمه ودقة التأمل والنظر في أحكامه، وهديه، وقصصه وأمثاله، بما يدفعه لكثرة قراءته.

خامساً: مسالك السابقين في الإعجاز القرآني:

عندما عُنيَّ البحث في قضية الإعجاز والكشف عن وجوهه ظهرت على ساحة الفكر الإسلامي عدّة توجهات، منها ما هو قائمٌ على أنّ القرآن الكريم قد أعجز العرب الذين نزل فيهم في زمن النبوة، لا لشيءٍ في ذاته، وإنّما لأنّ الله تعالى قد صرفهم عن الإتيان بمثله، فهو إذن معجز بالصّرف، ومنها ما هو قائمٌ على أنّ القرآن أعجز العرب لاشتماله على ما لا يطيقون الإتيان به، من مثل الإخبار بالغيب، ومنها ما هو قائمٌ على أنّ القرآن معجز بلُغته وأسلوبه، وتأليفه ونظمه كونه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في الفصاحة والبلاغة والبيان.

¹ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تح: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق-سورية، ط4، 1987م، ص27.

² الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تح: السيّد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د ط)، (د ت)، ص118.

لذلك سنعرض بعض من المؤلفات التي تناولت قضية الإعجاز ما بين القرنين الثالث والخامس فيذكر من القدامى أنّ أبا عثمان الجاحظ (ت255هـ) هو أول من تناول قضية الإعجاز في القرآن الكريم، وذلك في القرن الثالث الهجري، من خلال كتابه الموسوم " نظم القرآن " غير أنّه لم يتبقّ من هذا الكتاب إلا ما نقله الجاحظ - نفسه - عنه في مؤلفاته أو ما كتبه عنه المؤلفون الآخرون، أمّا أصول الكتاب فقد فُقدت مع ما فُقد من تراثنا اللغوي، وبذلك تكون فكرتنا عن منهجه، أو طريقة معالجته للإعجاز البياني مبنية على القليل المتبقي من هذا الكتاب، الذي يفيد أنّ الجاحظ ألّفه للردّ على الطاعنين بالنصّ القرآني ممن حاولوا التقليل من قيمة الإعجاز ونفي وقوعه في القرآن، ويرى الجاحظ أنّ النظم هو وجه الإعجاز المعجز، إذ يقول: " وفي كتابنا المنزل يدُلُّنا على أنّه صدق، في نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"¹.

وعلى كل حال فدور الجاحظ لم يكن مجرد صرخة في وادٍ، وإنّما كان دورًا أساسيًا يُدعمه فهم حقيقي لقضية البلاغة وقضية الإعجاز مما جعل اسمه يتردد على أqlام الذين كتبوا في قضية الإعجاز موافقة أو مخالفة.

ثم يأتي أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ) في أواخر القرن الثالث الهجري الذي ألف كتابًا سماه " إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه " ويقول أحمد مطلوب عن هذا الكتاب: " لا نعرف شيئًا عن هذا الكتاب، ولا نستطيع أن نتصور الفكرة الأساسية التي عالجه فيها وإن اسمه يدلُّ على أنّه عالج مسألة النظم والتأليف ويبدو من اهتمام عبد القاهر بهذا الكتاب وشرحه مرتين أنه كان على جانب عظيم الأهمية"².

وفي القرن الرابع الهجري، يؤلف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت386هـ) رسالته " النكت في إعجاز القرآن " وهذه الرسالة منشورة ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

¹ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1385هـ-1966م، ج4، ص90.

² أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1393هـ-1973م، ص246-247.

أمّا وجهة نظره لأوجه الإعجاز في القرآن الكريم فيقول مُحققًا الرسالة: " تأخذ الرسالة شكل جواب على سؤال وُجِه للمؤلف عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج وهذا الجواب يتلخص في أنّ وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشِدَّة الحاجة والتّحدي للكافة والصرفة والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية ونقض العادة وقياسه بكل معجزة وبوجه المؤلف همّة من هذه الجهات السبع إلى البلاغة فيذكر أنها على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة"¹.

وبعدَ أن يشرح المؤلف كل واحدة من هذه الطبقات يحصر البلاغة في عشرة أقسام أو أبواب هي: " الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان ثم يستمر فيفسر هذه بابًا بابًا بتعريف الموضوع ثم بتقسيمه إلى نواحيه مستشهدًا لكل ناحية بالآية من القرآن، وندر أن يستشهد ببيت من الشعر أو قول مأثور من النثر إلا ما استلزمته الموازنة بين الآية وما في معناها من كلام العرب"².
وعندما ينتهي الرماني من شرح أقسام البلاغة العشرة نجده قد خصَّصَ بعض من صفحات كتابه للتعريف بوجوه الإعجاز الستة التي ذكرها في كتابه أول مرّة والتي تشكل مع البلاغة وجوه الإعجاز في نظره.

وفي القرن نفسه ألف حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي(ت388هـ) كتابه " بيان إعجاز القرآن" وقد تابع الخطابي في رسالته قول الرماني عن البلاغة واتفق معه في أنّ البلاغة القرآنية حازت أعلى مرتبة في الحُسن، وعلّل لذلك بأنّ تباين بلاغة الكلام وتفاوتها يعود إلى أنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيّن متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها

¹ الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص16.

² المرجع نفسه، ص16.

الجائز الطلق الرّسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة¹.

ويُعَلَّ فضل حسن عباس اختلاف أجناس الكلام بقوله: " فالمُخَاطَبُونَ ليسوا سواء، فمنهم الحضري الذي هُذِبَ لسانه، ومنهم سُكَّانُ البادية الذين أكسبتهم البداوة قوة ورسانة، وإذا كان المُخَاطَبُونَ كذلك، فإنَّ الموضوعات التي يقصد إليها المتكلم ليست سواء كذلك، فالحديث عن الوصف يختلف عن الحديث عن الهجاء، وهذا يختلف عن الفخر... وأسلوب التخويف يختلف عن أسلوب الترجي، لذلك لابدَّ أن يوضع كل أسلوب في القالب الذي يُناسبه"².

أمَّا الخطابي فيذهب إلى شرح هذه الأقسام فيقول: " فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّةً، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نوعتهما كالمتضادين لأنَّ العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبؤ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن"³.

كما يعلل الخطابي عجز البشر على الإتيان بمثل القرآن: " منها أنَّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية [وبألفاظها] التي هي ظروف المعاني والعوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن

¹ الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص26.

² فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص48.

³ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص26.

الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظاً حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم¹.

وملخص رأي الخطابي أنه يرى أن إعجاز القرآن راجع إلى ألفاظه، وحسن نظمه، وسمو معانيه وأثره في النفوس ولقد صرح بهذا فقال: " وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاوفاً وتشاكلاً، وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقلٍ أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء عدداً، فتفهم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"².

وفي أواخر القرن الرابع، وأوائل القرن الخامس ظهر أبو بكر الباقلاني (ت403هـ) ألف كتابه " إعجاز القرآن" تحدث في بداية كتابه عن المعجزة، وقرر أن القرآن هو معجزة الرسول ﷺ والكبرى، وهناك معجزات أخرى، ومعجزة القرآن هي معجزة تحدي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمعجزات الأخرى والإعجاز يرجع في نظر الباقلاني إلى ثلاثة أمور:

أحدهما: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه بشر، ولا سبيل لهم إليه. فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام، أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة، 33] ففعل ذلك³.

¹ الخطابي، بيان إعجاز القرآن ، ص27.

² المرجع نفسه، ص27.

³ الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د ط)، (د ت)، مج1، ص48.

والوجه الثاني: أنه كان معلومًا من حال النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان أميًا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفًا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأبنائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيماات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعثه، فذكر في الكتاب، الذي جاء به معجزة له: قصة آدم عليه السلام، وابتداء خلقه¹.

والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه. وأن أسلوب القرآن ونظمه خارجان عما ألفه العرب من أساليب كلامهم المنظوم والمنثور، فهو ليس بالشعر، ولا بالنثر، ولا بالسجع، وإنما هو أسلوب انفرد به القرآن وحده وفي هذا يقول: " وذلك أنّ نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في صرفه عن أساليب الكلام المعتاد².

¹ الخطابي، بيان إعجاز القرآن ، ص50.

² المرجع نفسه، ص51-52.

الفصل الثاني:

قضايا الإعجاز اللغوي القرآني

عند عبد القاهر الجرجاني

تمهيد

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة عبد القاهر الجرجاني.

ثانياً: دلائل الإعجاز القرآني عند الجرجاني.

ثالثاً: الإعجاز اللغوي التركيبي عند الجرجاني.

رابعاً: الإعجاز اللغوي البياني عند الجرجاني.

خلاصة الفصل.

تمهيد:

تميّز القرن الخامس الهجري بنضج العلم والتأليف والإبداع، حيث تكاملت فيه شتى علوم العربية من نحو وبلاغة وفقه ونقد وغيرها، وجمعت فيه كل دواوين الشعر، وألفت فيه المعجمات ودوّنت المفردات، كما برزت فيه طوائف مختلفة من المتكلمين، وعالج هؤلاء العلماء مختلف القضايا العلمية والأدبية والدينية بمنطق العقل والاجتهاد، معتمدين في ذلك على حرية الإدلاء بأرائهم وحق مناقشتها والدفاع عنها، ومن بين القضايا التي كانت ولا تزال محل بحث لدى العلماء، ما يُسمى بالإعجاز القرآني الذي على أساسه كان تحدي البلاغ والفصحاء والعرب أجمعين أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا لذلك سبيلاً، ونظراً لتشعب الآراء واختلافها حول مكمّنه ومحلّ وجوده في القرآن ووفق تخصصاتهم واختلاف مشاربهم، ومعتقداتهم، فمن العلماء الذين أسهموا في هذا المجال نجد عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله - فكان ما أنتجه من فكر إبداعاً اعترف له به المصنّفون، وما أبعدَ الفرق بين الذاكرة الحافظة التي تحفظ أقوال السابقين، وبين العقلية المبدعة المفكرة التي تفيد من السابقين، ولكنها تبرز جديداً يكون مثار الإعجاب، وبناءً على ذلك فقد رأينا أن نجتهد في الكشف عن شخصية هذا العالم الفذ وكيف كانت نظرتَه للإعجاز؟ ومنطلقاته فيه؟ وفيمّ تتمثل طريقته في الكشف عن وجوه إعجاز القرآن؟

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة عبد القاهر الجرجاني:

1- نسبه:

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، المشهور بأبي بكر النحوي، فارسي الأصل جرجاني الدار¹، كان من كبار أئمة العربية والبيان شافعي المذهب، أشعري الأصول².

2- مولده ووفاته:

إنَّ أغلب الذين تحدثوا عن عبد القاهر يُوردون ترجمات موجزة، وأخبار قليلة لا تسعف في معرفة مولده، ولا بداية نشأته أو أسرته - سوى أنها أسرة فارسية الأصل - وكل المؤرخين لم يتمكنوا من معرفة شخصيته بصورة كاملة، غير أنَّ ما يورده بعضهم عن مكانته يجعل المرء يتيقن أنَّه كان على خلق كبير، أعجب به مرتادوه، فمكثوا عنده ونهلوا من علمه. والدارس لإرث عبد القاهر، يلمس أنَّه ذو علم غزير وثقافة واسعة متعددة المصادر، وقد اتجه عبد القاهر إلى العلماء وقرأ عليهم وأخذ عنهم، وكان الشيخ أبو الحسين محمد بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي، ابن أخت أبي علي الفارسي أستاذه الأول في النحو³. وقد توفي عبد القاهر الجرجاني سنة إحدى - وقيل أربع - وسبعين وأربعمائة⁴.

3- تلاميذه:

اشتهر من تلاميذ عبد القاهر الحسن علي بن أبي زيد النحوي المعروف بالفصحي، وأحمد إبراهيم الشجري⁵، وأبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي وغيرهم.

¹ القفطي جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف ، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952، ج2، ص188.

² السيوطي جلال الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، 1979، ج2، ص106.

³ الكتبي محمد بن شاكر بن أحمد ، فوات الوفيات، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1951، ج1، ص612.

⁴ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص106.

⁵ القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص189.

4- آثاره:

لعبد القاهر الجرجاني كتب كثيرة في الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية وغيرها، وقد وصل إلينا بعضها وضاع البعض الآخر أو ما يزال مجهولاً.

وقد أخذ النحو شطراً كبيراً من جهده في التأليف، فقد صنف كتاب الإيضاح وشرحه بكتابه المغني، وهو شرح للإيضاح في ثلاثين مجلداً¹، ولخص المغني في كتاب المقتصد وهو في ثلاث مجلدات، قال عنه القفطي: " وهو مقتصد من مثله، على ما سماه لم يأتي في الإيضاح بشيء له مقدار"²، وله كتاب الإيجاز، وهو اختصار آخر للإيضاح، وله كتاب العوامل المائة وهو كتاب مشهور متداول، يدل على ذلك كثرة الشروح التي ألفت عليه. ككتاب الجمل قال عنه القفطي: " وله شرح كتاب العوامل سماه الجمل، ثم صنّف شرحه فجرى على عادته في الإيجاز"³، وله كتاب التلخيص وهو شرح لكتاب الجمل.

وكما ألف عبد القاهر في النحو كذلك ألف في الصرف، فكان له كتاب العمدّة في التصريف، وهو كتاب مختصر⁴.

4-1- الدراسات القرآنية:

أ- كتاب شرح الفاتحة: وهو من كتبه التي لا نعلم عنها شيئاً سوى ما قالوا عنه أنّه في مجلد، ولم يُشر إليه عبد القاهر أو ينقل عنه في كتبه التي بين أيدينا، وقد يكون هذا الشرح تطبيقاً لنظريته في النظم أو لمنهجه في التفسير.

ب- درج الدرر في تفسير الآي والسور: ويبدو أنّه يضم سوراً وآيات يُفسرها حسب رأيه واعتقاده⁵.

¹ الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص613.

² القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص188.

³ المرجع نفسه، ص189.

⁴ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص35.

⁵ المرجع نفسه، ص26.

ج- **المعتضد**: وهو شرح كبير لكتاب أبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي في إعجاز القرآن، وقد سماه بعضهم **إعجاز القرآن** قال القفطي: "وله إعجاز القرآن دل على معرفته بأصول البلاغات ومجاز الإيجاز"¹.

د- **الشرح الصغير**: وهو شرح مختصر لكتاب الواسطي يقول أحمد مطلوب: "إن هذا الكتاب وكتاب الواسطي لم يصل إلينا ولا نعرف عنهما شيئاً"².

هـ- **الرسالة الشافية**: وهي في الإعجاز، وقد طبعت في كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" وهدف عبد القاهر في هذه الرسالة إثبات عجز العرب عن معارضة القرآن وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز الذي يتسع له ذرع المخلوقين، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم بعلم الأدب جملة"³.

4-2- الدراسات البلاغية:

اهتم عبد القاهر بأسلوب القرآن الكريم ونظمه، وألف كتبه البلاغية ليوضح هذه الفكرة ويرد كثيراً من الشبه التي أثارها الطاعنون في الإسلام والقرآن ومن هذه الكتب نجد:

أ- **دلائل الإعجاز**: لقد كان هدف عبد القاهر البرهنة على أن القرآن معجز بالنظم وأن بلاغة الكلام لا ترجع إلى ألفاظه وإنما إلى ما بينها من صلة وارتباط، ولذلك أطال الحديث عن نظريته واستعان بالصور البيانية في إثباتها.

ب- **أسرار البلاغة**: ويختلف هدف عبد القاهر في هذا الكتاب عن هدفه في الدلائل، فهو لم يؤلفه لغرض ديني أو مسألة تتعلق بالإعجاز وإنما ألفه لغاية بلاغية ووضع الأصول والقوانين وبيان الأقسام وذكر الفروق بين العبارات والفنون البيانية.

¹ القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص189.

² أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص36.

³ الجرجاني عبد القاهر، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص117.

ثانياً: دلائل الإعجاز اللغوي القرآني عند الجرجاني:

يعتبر القرن الخامس الهجري هو العصر الذهبي لفكرة إعجاز القرآن. حيث استمرت الدراسات الأصيلة حولها، منذ انطلاقتها في القرن الثالث الهجري، ونضجت فيما تضمنته من أقوال وآراء، وكثر العلماء الذين تكلموا في الإعجاز، ومن هؤلاء عبد القاهر الجرجاني الذي اهتم بقضية الإعجاز في القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، وإذا نظرنا إلى دراسته في هذا الموضوع وجدناه يدير حديثه في ثلاث كتب من مؤلفاته، وهي دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والرسالة الشافية، ولو حاولنا أن نستطلع مضمون رسالته الشافية لوجدناها أنه قد حاول من خلالها التدليل على شرف القرآن وعلو منزلته في البيان، وأنه المعجزة التي لا تنقطع على مدى الدهور والأزمان، كيف لا، وهو تنزيل العليم الخبير، كما أننا نجده يحاول أن يثبت فيها عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم، والقرآن مؤلف من جنس كلام العرب ولغتهم وقد نزل بلسان عربي مبين، إذن فمن الحتم أن نقف على كلام العرب، الذي تعلق به القرآن الكريم ونزل به، ووقع فيه التحدي، لنصل من وراء ذلك إلى سر إعجاز القرآن وروعة بيانه ونظمه.

وفي هذا يقول: " وهذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تُحدوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ويعلم الأدب جملة"¹.

وبعد هذا نجد الجرجاني قد انتقل إلى مقدمة أخرى فقال: " معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غايات يئأ بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضاً، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيهم عنهم"².

¹ الجرجاني عبد القاهر ، الرسالة الشافية، ص117.

² المرجع نفسه، ص117.

فقد كان العرب هم القدوة والأسوة في درجات البلاغة وقت نزول القرآن، فلا ينبغي لأحد - كما يقول الجرجاني - أن يدعي بعد زمان النبي ﷺ أنه يزيد على أولئك الأوائل ويستدل الجرجاني لذلك بما جاء عن خالد بن صفوان قوله: "كيف نجاريهم وإنما نحكيهم، أم كيف نسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم؟"¹.

ويستدل الجرجاني أيضاً بما ورد عن الجاحظ في ادعائه الفضل للعرب وحدهم في هذا الميدان، ومناظراته لفرقة الشعوبية، التي كانت تسعى للتقليل من شأن العرب ومن شأن اللغة العربية، وإذا كان العرب هم القدوة فلنا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حين سمعوا القرآن والتي تؤكد أنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله²، فمن دلالة الأحوال "أن المتعارف عليه من عادات الناس التي لا تختلف، وطبائعهم التي لا تتبدل أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة، وهم يبذون سبيلاً إلى دفعها، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم لا سيما إذا كان الخصم قريباً وقد دعاه إلى ممانتته، واستدل على ذلك بالإشارة إلى مناقضات وممانتات جرير والفرزدق، وغيرهم من الشعراء، كذلك إذا كان التسليم بالفضيلة لأحد المتبارين على الآخر ليس موجوداً بين الشعراء أو الخطباء أو الكتّاب، ترتب على ذلك سؤال رئيس هو: كيف يجوز أن يظهر في صميم العرب، وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبوية والهمم العلية والأنفة والحمية، من يدعي النبوة ثم يتحداهم بالقرآن فرادى ومجتمعين، ثم لا يجيبوه ولا يعارضوه مع إمكان ذلك وقد بلغ بهم الغيظ مبلغه، فواجهوه بكل قبيح ولقوه بكل أذى ومكروه"³.

فدل ذلك على عجزهم، ولا شك أنه قد أفاد هذا مما سبقه من رسالة الخطابي، فالخطابي يقول في مقدمة رسالته: "وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرًا لهم النكير، زارياً على أديانهم، مُسْفِهاً آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه، وناصره الحرب، فهلكت

¹ الجرجاني عبد القاهر، الرسالة الشافية، ص118.

² المرجع نفسه، ص118.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص119-120.

فيه النفوس، وقطعت الأرحام وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم، وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيّرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل"¹.

ثم ينتقل عبد القاهر الجرجاني إلى تفصيل دلائل الأقوال، فيذكر أنّها كثيرة، وهي تتمثل في اعتراف أعداء محمد ﷺ بحسن بيان القرآن، وكذلك تأثر من سمعه بقلب مفتوح فأسلم، فذكر قصة الوليد بن المغيرة، وقصة عتبة بن ربيعة اللذين تأثرا عند سماع كل منهما القرآن من الرسول ﷺ ولكنهما لم يسلما ويحكي الإمام عبد القاهر قصة إسلام أبي ذر، وقصة الوليد بن عتبة الذي يروى أنه أتى النبي ﷺ فقال اقرأ. فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل، 90] فقال: أعد، فأعاد، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمُعرق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر"².

ثم بعد ذلك اتجه الجرجاني نحو شُبُهَات المبتليين، فعرض بعضها، وأبطلها بالدليل والبرهان، ومن هذه الشُّبه أن العرب تجمع على أن شعراء الجاهلية من أمثال: " امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى، أنهم أشعر العرب، فمن الذي يضمن أنهم لو تُحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوا"³.

ونرى الإمام عبد القاهر يُبطل هذه الشبهة بقوله: " هذا الفصل على ما فيه لا يقح في موضوع الحجة، وذلك أنهم كانوا - كما لا يخفى - يَرُوونَ أشعار الجاهليين وخطبهم، ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تشكّل جهات الفضل عليه، فلو كانوا يرون فيما رَووا مزية على القرآن، أو رأوه قريباً منه، أو بحيث يجوز أن يعارض بمثله، أو يقع لهم إذا

¹ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص21.

² الجرجاني عبد القاهر ، الرسالة الشافية، ص125.

³ المرجع نفسه، ص127.

قاسوا أو وازنوا أن هذا الذي تحذوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، لكانوا يدعون ذلك ويذكرونه، ولو ذكروه لذكر عنهم¹.

ثمَّ يقول: " ومُحال إذا رجعنا إلى أنفسنا استشفعنا حال الناس فيما جبلوا عليه، أن يكونوا قد عرفوا لما تحذوا إليه، وقرعوا بالعجز عنه نظماً، ثمَّ يتلى عليهم: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء، 88] فلا يزيدون على جوابه الصمت، ولا يقولون: لقد رويانا لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصر عما أتيت به، فمن أين استجرت أن تدعي هذه الدعوى؟².

فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك، ولا رأوا أن يقولوه، ولو على سبيل الدفع والتلبيس والشغب بالباطل، بل كانوا بين أمرين: إما أن يخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور، وذلك حين يخلو بعضهم إلى بعض، أو أن يتعلقوا بما لا يتعلق به إلا من أعوزته الحيلة³.

وبذلك يُثبت الشيخ الجرجاني أن الشعراء الذين ذكروهم لو كانوا في زمان النبي ﷺ ثمَّ تحذوا إلى معارضته لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالهم، ثمَّ يقول: " وإذا كان هذا هكذا فقد انتفى الشك، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس، ويطمئن عنده القلب، أنه معجز ناقض للعادة، وأنه في معنى قلب العصا حية، وإحياء الموتى في ظهور الحجة به على الخلق كافة"⁴.

وهذا الذي ذكره هنا قد أفاده من أحد وجوه الإعجاز السبعة التي ذكرها الرماني برسالته ومنها: " قياسه بكل معجزة، فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة، وإذا كان سبيل فلق البحر

¹ الجرجاني عبد القاهر، الرسالة الشافية، ص 127.

² المرجع نفسه، ص 127.

³ المرجع نفسه، ص 127-128.

⁴ المرجع نفسه، ص 128.

وقلب العصا حيّة، وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز، إذ فقد خرج عن العادة وقصر الخلق عن المعارضة¹.

بعد ذلك نجد الشيخ يعرض بعض الشبه متعلقة بإعجاز القرآن الكريم حين تحدوا إلى معارضته ونجده في ذلك يقول: " قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له، وحتى لا يطمع أحد في مدانته، وحتى ليقع الإجماع فيه أنه الفرد الذي لا ينازع، ثمّ يذكرون امرؤ القيس والشعراء الذين قدموا على من كان معهم في أعصارهم"². ومفاد هذه الشبهة أنّ هنالك بعض الشعراء والأدباء قد سبقوا زمانهم الذي كانوا فيه وتحدا أقرانهم، ولم يُسمَّ أحدٌ هذا الأمر بأنه إعجاز، وقد علّق الجرجاني على شبهتهم هذه قبل أن يردّها بقوله: " وهي نفثة نفثها الشيطان فيهم، وإنّما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل"³.

وقد سلك الجرجاني في رده هذه الشبهة طريقة تقوم على مناقشاتهم في أصل الشبهة بعدم التسليم لهم فيها حيث يقول: " وليت شعري من هذا الذي سلّم لهم أنّه كان في وقت من الأوقات من بلغ أمره في المزية وفي العلو على أهل زمانه هذا المبلغ، وانتهى إلى هذا الحد!⁴، وقد ضرب أمثلة في بعض الشعراء تثبت ما قاله، ومنها: قصة علقمة الفحل مع امرؤ القيس وزوجته لما تناشدا: أينا أشعر؟⁵.

فقال امرؤ القيس:

خَلِيلِي مَرًّا بِي عَلَى أُمَّ جُنْدُبٍ تَقْضِي لَبَنَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعْدَبِ⁶

وقال علقمة:

¹ الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، ص111.

² الجرجاني عبد القاهر ، الرسالة الشافية، ص128-129.

³ المرجع نفسه، ص129.

⁴ المرجع نفسه ، ص129.

⁵ المرجع نفسه، ص129.

⁶ امرؤ القيس، الديوان، تح: أنور أبو سليم، علي الشمولي، دار عمّار، عمان، ط1، 1412هـ-1991م، ص29.

ذَهَبْتُ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا النَّجْبِ¹

وتحاكما إلى المرأة ففضلت علقمة²

وكذلك ما جرى بين امرئ القيس والحارث اليشكري في تَتَمِيمِ أنصاف بعض الأبيات

التي أولها:

أَحَارِ تَرَى بُرَيْقًا هَبَّ وَهَنَا كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتَعْرِ اسْتِعَارًا³

حتى قال امرئ القيس لا أُمَاتِنُكَ بعد هذا.

ثم استدلل الجرجاني ببعض الآثار، التي تدل على أنه لم يزل بين الناس في كل زمان خلاف أيهما أشعر؟ ولم يستقر الأمر في تقديم قرارٍ يرفع الشك في مثل ما جرى من سؤال ابن عباس للحطيئة عن أشعر الناس من المناضلين والباقيين؟ وما جرى بين ابن عباس وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وغير ذلك، وكل ذلك كي يقرر أن الأمر ليس محل اتفاق كما قرر أصحابه، وأنَّ النظر أن تتباين في الحكم على الشعراء⁴.

وهكذا رأينا عبد القاهر قد فند في رسالته الشافية شُبُهًا لبعض الأشقياء والمشككين، وأبطلها بالحجة والبرهان بأسلوب رائع ومقنع، أثبت من خلاله أنَّ العرب قد عجزوا عن معارضة القرآن الكريم، وقد تميزت رسالته ببعض الخصائص منها:

1- استشهاده بالآيات القرآنية، والأحاديث، وبأشعار العرب، ولا شك أنَّ هذا يثري

الكتاب ويدعمه.

2- الاستشهاد بأقوال العلماء كالجاحظ وغيره، وأقوال العرب الأفاضل كخالد بن صفوان

وغيره.

¹ علقمة الفحل، الديوان، تح: لطفي الصقال، ذرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 1389هـ-1969م، ص6.

² الجرجاني عبد القاهر، الرسالة الشافية، ص130.

³ امرؤ القيس، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د ت)، ص147.

⁴ الجرجاني عبد القاهر، الرسالة الشافية، ص131.

3- امتلاكه مهارة في أسلوب المناظرة تُرِكِ الخُصْم، وتضطره للإدعان ونقضه شبه الخُصْم من جميع الجوانب، حيث إنَّه لا يترك للطرف الآخر شيئاً يتشبث به.

ثالثاً: الإعجاز اللغوي التركيبي عند الجرجاني:

1- التقديم والتأخير:

يعد التقديم والتأخير من أهم الموضوعات التي تناولها النحويون في دراساتهم فأشاروا إليه أكثر من مرة ومن بين هؤلاء نجد " ابن جني " الذي أفرد التقديم والتأخير بفصل كامل مبيئاً ما جاز تقديمه وما لا يجوز تقديمه نحوياً وقد اكتفى فيه بذكر المفعول به والفاعل فهو يقول " فصل في التقديم والتأخير وذلك على ضربين أحدهما ما يقبله القياس، والآخر ما يسهله الاضطرار .

الأول كتقديم المفعول على الفاعل تارة، وعلى الفعل ناصبة أخرى، ك (ضرب زيداً عمرو) و(زيداً ضرب عمرو) وكذلك الظرف، نحو: (قام عندك زيدٌ) و(عندك قام زيدٌ) و(سار يوم الجمعة جعفر) و(يوم الجمعة سار جعفر) وكذلك الحال نحو: (جاء ضاحكاً زيدٌ) و(ضاحكاً جاء زيد) ¹، وعلى الرغم من تناول النحاة لهذا الموضوع إلا أنَّهم لم يركزوا على القصد أو الهدف من وراء التقديم والتأخير إن كانوا قد تناولوه في سياق عرضهم للقواعد النحوية بشكل عام.

أمَّا الإمام عبد القاهر الجرجاني فقد نبَّه إلى أهمية التقديم والتأخير قائلاً: " هو بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديةٍ، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمَّعه، ويلطِّفُ لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبباً أن راقك ولطَّف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحول اللَّفْظ عن مكانٍ إلى مكانٍ" ².

¹ ابن جني أبي الفتح عثمان ، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د ت)، ج2، ص382.

² الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ-1992م، ص106.

ومعنى هذا أنه عظيم المحاسن متعدد الطرق والأساليب بتعدد نوع المقدم وموقعه ونوع الأسلوب الذي يقع فيه، لا تقف على نهاية محاسنه بسبب اتساع مجالاته ومقاماته، وأنه كلما تأملته تلوح لك منه ميزة طريفة وكشف لك عن سرٍّ مكنون فيه.

والتقديم عنده على وجهين هما:

الوجه الأول: تقديم على نية التأخير: وذلك أن يظل المقدم على حكمه النحوي كأنه

آخر، ومثال ذلك أمران:

أولاً: تقديم الخبر على المبتدأ كقولك (منطلقٌ زيدٌ) فيظل (منطلق) خبراً مرفوعاً وإن قدم.

ثانياً: تقديم المفعول على الفاعل كقولك (ضرب عمرًا زيدٌ) معلوم أن (منطلق) و(عمرًا)

لم يخرجوا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعاً بذلك وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله، كما يكون إذا أُخِّرت¹.

الوجه الثاني: تقديم لا على نية التأخير، وفيه ينتقل حكم المقدم إلى غير حكمه

ويختلف إعرابه ونضرب مثلاً على هذا الوجه المثالين التاليين:

أولاً: تساوي المبتدأ والخبر في التعريف، فيحتمل أي منهما أن يكون المبتدأ، ذلك أن

تقول (زيدٌ المنطلقُ) على أن يكون (زيدٌ) المبتدأ، وتقول (المنطلقُ زيدٌ) على أن يكون

(المنطلق) مبتدأ، وتقديم (زيدٌ) في المثال الأول جعله مبتدأ في حين أن تأخيره في المثال

غير إعرابه إلى الخبر².

ثانياً: التقديم في باب الاشتغال مثل: (ضربتُ زيداً) و (زيدٌ ضربتهُ) هذا التقديم لـ

(زيداً) انتقل إعرابه من مفعول به في الجملة الأولى، إلى مبتدأ في الجملة الثانية حيث

يشتغل الفعل بضمير زيد وتكون الجملة الفعلية في موضع خبر المبتدأ³.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، ص106.

² ينظر: المرجع نفسه، ص106-107.

³ المرجع نفسه، ص107.

فالتقديم والتأخير حسب الجرجاني لا يكون بتغيير المواضع في التركيب فحسب وإنما يخضع إلى المقام الذي أنشئ فيه الكلام، وذلك بمراعاة أقطاب عملية التواصل من متكلم وسماع وموضوع الخطاب وقد بين هذه المعاني المستفادة من التقديم والتأخير من خلال نماذج تركيبية مختلفة خاصة في مسائل التقديم والتأخير في الاستفهام والإثبات موضحاً هذه الفروق في تراكيب النص القرآني.

1-1- التقديم في الاسم والفعل الماضي في الاستفهام بالهمزة: حيث جعل التقرير

في قوله تعالى حكاية عن قول النمرود: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء، 62] فيعلق عبد القاهر على هذه الآية بأنهم أرادوا أن يقرروه بأنه هو الفاعل لا بأنه الفعل قد حصل، لأن الفعل - وهو الكسر - ظاهر مُشار إليه، فلا معنى للتقرير به، ولأنه لو كان الغرض التقرير بالفعل لكان الجواب (فعلت، أو لم أفعل) ولكنه أجاب بنسبة الفعل إلى (كبيرهم) نفيًا لما طلبوه من نسبة الفعل إليه دون غيره، فدّل ذلك على أن المطلوب التقرير بالفاعل لا الفعل¹، هكذا يظهر الجرجاني الفرق بين تقديم الفعل إن كنا نشك في وقوعه، وبين تقديم الاسم في حال شكنا في هوية الفاعل.

وقد بيّن الجرجاني وجهًا آخر للتقديم والتأخير مع الهمزة وهو الإنكار فإنّ تقديم الاسم سيؤدي إلى وقوع الإنكار في الفاعل في حين يكون تقديم الفعل دلالة على وقوع الإنكار فيه، لا في الفاعل ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا. إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء، 40] وقوله تعالى: ﴿اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات، 153-154] ومن عادة الإمام عبد القاهر أن يقوم بتحليل الشواهد القرآنية وذلك لكي يوضح الغاية الأساسية من ورائها، فيقول معلقًا على ذلك: فهذا ردّ على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم وإذا قدم الاسم في هذا صار الإنكار في الفاعل ومثاله قولك للرجل قد انتحل شعرًا (أأنت قلت هذا الشعر؟ كذبت

¹ ينظر: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 113-114.

لست ممن يحسن مثله) انكرت أن يكون القائل ولم تنكر الشعر¹، يعني أنكرت الفاعل ولم تنكر الفعل وهو قول الشعر، لأنه موجود بدليل الإشارة إليه.

1-2- تفسير الاستفهام الدال على الإنكار: لقد فرق الإمام الجرجاني بين أسلوبين وهما النفي الصريح والاستفهام الإنكاري، فذكر أن النفي الصريح، لا يقال في المستحيل وفيما لا يقول به عاقل، فلا تقل مثلاً لمن يحاول أمراً بعيداً (أنت لا تصعد إلى السماء؟)، (أنت لا تتقل الجبال) بخلاف الاستفهام الإنكاري فإنك تقول (أتصعد إلى السماء؟)، (أتستطيع أن تتقل الجبال؟) على سبيل التمثيل، وتنزيل المخاطب الذي يطلب الأمر البعيد منزلة من يدعي أنه يستطيع أن يصعد إلى السماء، وأن ينقل الجبال²، ووجه الشبه (أن كلاً يطلب ما لا يستطيع) فهو من قبيل الاستعارة التمثيلية³، وذكر عبد القاهر أن من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى﴾ [الزخرف، 40] إذ الكلام ليس على ظاهره، لأن إسماع الصم، مما لا يدعيه أحد بل هو على سبيل التمثيل، وتشبيه النبي ﷺ في محاولته هداية الكافرين الذين أصروا على كفرهم بمن يحاول إسماع الصم، وهداية العمى ووجه الشبه " أن كلاً يطلب أمراً، لا يحصل" وقدم الفاعل هنا، لأن القصد بالإنكار إليه⁴.

وقول ابن أبي عيينة:

فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطْنِينُ أَجْنِحَةِ الدُّبَابِ يَضِيرُ؟⁵

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص114.

² محمد السيد شيخون، أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص26-27.

³ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص120.

⁴ محمد السيد شيخون، أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، ص27.

⁵ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص121.

ليس على ظاهره، إذ يدعي أحد أن طنين الذباب يضير بل هو على سبيل التمثيل، وتنزيل المخاطب في دعواه، أن وعيده الذي لا يؤبه له يضير منزلة من يدعي أن طنين أجنحة الذباب يضير ووجه الشبه أن كلاً قد ادعى دعوى كاذبة¹.

1-3- التقديم والتأخير في الخبر المثبت: لقد بين الإمام عبد القاهر أحوال الجملة

المثبتة في التقديم والتأخير وأكد أنها تخضع لنفس القاعدة السابقة في الاستفهام فهو يقول: " واعلم أن الذي بان لك في الاستفهام والنفي من المعنى في التقديم، قائم في الخبر المثبت"². فإذا كان القصد إلى الفاعل قدمته وبنيت الفعل عليه، فنقول " زيدٌ قد فعل " و " أنا فعلتُ " و " أنت فعلت " وهذا التقديم يقوم على معنيين هما:

الأول: هو قصر الفعل على الفاعل دون آخر، أو دون غيره:

فنقول " أنا كتبت في معنى فلان، وأنا شفعت في بابهِ " تريد أن تدعي الانفراد بذلك والاستبداد به، وتنزيل الاشتباه فيه.

الثاني: فهو ليس لإفراد الفعل بالفاعل بل التحقيق على السامع بأن الفاعل قد فعل:

وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولاً ومن قبل أن تذكر الفعل نفسه، لكي تباعده بذلك من الشبهة، وتمنعه من الإنكار، أو من أن يُظنَّ بك الغلط أو التزيُّد. ومثال قولك " هو يعطي الجزيل " و " هو يحبُّ الثناء " لا تريد أن تزعمَ أنه ليس هنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غيرُهُ، ولكنك تريد أن تحقِّق على السامع أن إعطاء للجزيل وحبُّ الثناء دأبه، وأنْ تُمكنَ ذلك في نفسه³.

ومثاله في الشعر:

هُمُ يَضْرِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرِقُ بَيْضُهُ، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الدِّمَاءِ سَبَائِبُ⁴

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص121.

² المرجع نفسه، ص128.

³ المرجع نفسه، ص128.

⁴ هذا البيت للأخفش بن شهاب التغلبي، لم نعثر على ديوانه، ولكن البيت موجود في كتاب الاختيارين صنعة الأخفش الأصغر، تح: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1404هـ-1984م، ص145.

لم يُرد أن يدعى لهم الانفراد، ويجعل هذا الضرب لا يكون إلا منهم، ولكن أراد الذي ذكرت لك، من تنبيه السامع لقصدهم بالحديث من قبل ذكر الحديث، ليحقق الأمر ويؤكد¹.
يعني يفيد تقديم "هم" تنبيه المستمعين إلى مَنْ المقصود بالحديث، ولفت الأنظار إليهم قبل وصفهم والحكم عليهم، حتى إذا جاء تأكد وتمكن، هذا هو الغرض من التقديم، وليس الغرض إفادة الاختصاص، لأنَّه ليس القصد إثبات ذلك لهم دون غيرهم، وعبد القاهر يعتمد في هذا على طبيعة المعنى والسياق، وللتوضيح أكثر ورد قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان، 03] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة، 61] لم يعقب عبد القاهر على هاتين الآيتين بتوضيح كما عَقَّبَ على البيت قبل، لأنَّ الآيتين كما يقول أبين من الجميع في أنَّ تقديم الفاعل "الضمير المنفصل" على الفعل للتأكيد، وليس للاختصاص، لأنَّ القول به في (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) يعني أنهم وحدهم مخلوقون، وهذا أبعد ما يكون، لكن لما كان المعنى أنهم مخلوقون لله تعالى الذي يستحق أن يُعبد، وكان هذا يصطدم مع من اتخذوهم آلهة أكد بتقديم الضمير، على أن جملة الفاصلة لما كانت معاكسة لما قبلها خالفها بتقديم الضمير المؤكد للدلالة على الاختلاف والتباين بين الخالق والمخلوق، وفي تقديم ضمير هم تعرية لعبادتهم وفضح لهم².

ومن هنا ندرك أنَّ تقديم المسند إليه في كل ذلك، لم يقصد به القصر، ولا نفي الفعل عن آخر، تعريضا به، وإنَّما قصد به تأكيد ثبوت الفعل للفاعل، ومنع السامع من الشك، فبدأ بالمسند إليه، للتنبيه ومنعه من الشك ومن خلال هذا كله نجد أنَّ عبد القاهر قد تبلورت لديه قاعدة لخصها بقوله: "وجملة الأمر أنَّه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلاً مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له لأنَّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ومن

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص130.

² محمد إبراهيم شادي، شرح دلائل الإعجاز، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، المنصورة، ط2، 1434هـ-2013م، ص205.

هاهنا قالوا: إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا أُضْمِرَ ثُمَّ فُسِّرَ كَانَ ذَلِكَ أَفْحَمَ لَهُ مِنْ أَنْ يذَكَرَ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيمَةِ وَإِضْمَارٍ¹.

ويُذَلُّ ذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالُوهُ أَنَّا نَعْلَمُ ضَرُورَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج، 46] تَعْنِي أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ " فَإِنَّهَا " ضَمِيرُ الْقِصَّةِ وَالشَّأْنِ، أَيْ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ وَحَرْفَ التَّوَكِيدِ فِي قَوْلِهِ " فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ " لَغْرَابَةِ الْحُكْمِ لَا لِأَنَّهُ مِمَّا يَشْكُ فِيهِ وَغَالِبًا الْجُمْلَةُ الْمُفْتَتِحَةُ بِضَمِيرِ الشَّأْنِ اقْتِرَانُهَا بِحَرْفِ التَّوَكِيدِ وَالْقَصْرِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ النَّفْيِ وَحَرْفِ الْاسْتِدْرَاكِ قَصْرُ ادْعَائِي لِلْمَبَالِغَةِ بِجَعْلِ فَقْدِ حَاسَةِ الْبَصَرِ الْمَسْمُومِ بِالْعَمَى كَأَنَّهُ غَيْرُ عَمَى، وَجَعْلُ عَدَمِ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى دَلَالَةِ الْمُبْصِرَاتِ مَعَ سَلَامَةِ حَاسَةِ الْبَصَرِ هُوَ مَبَالِغَةٌ فِي اسْتِحْقَاقِهِ لِهَذَا الْاسْمِ الَّذِي اسْتَعِيرَ إِلَيْهِ، فَالْقِصَّةُ تَرْشِيحٌ لِلِاسْتِعَارَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَفَانِينَ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ²، وَلِهَذَا نَجِدُ فِي الْآيَةِ فِخَامَةً وَشَرْفًا وَرُوعَةً لَا نَجِدُ مِنْهَا فِي قَوْلِنَا (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ).

2- الذكر والحذف:

تتاول اللغويين القدامى هذه الظاهرة بالبحث والدراسة وهناك من أطلق عليها مصطلح الإضمار، وبما أن الحذف ظاهرة متوسطة بين النحو والبلاغة لها جذور متأصلة في النحو ولها أيضًا امتداد في البلاغة، فإن النحاة يفرقون بين الحذف والإضمار حيث يقولون: " إن الفاعل يضم ولا يحذف وذلك حيثما أمكن تقديره بضمير مستتر فكأنهم يريدون بالضمير ما لا بدَّ منه وبالمحذوف ما قد يستغنى عنه"³.

أي كأنَّ المُضْمِرَ مَا نَحْتَاجُهُ فِي الْجُمْلَةِ وَلَكِنْ نَخْفِيهِ فَقَطْ، أَمَا الْمَحْذُوفُ فَمَا نَسْتَطِيعُ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْهُ أَصْلًا، وَالْمَحْذُوفُ لَا يَظْهَرُ وَلَكِنْ يَقْدَرُ أَمَا الْمَضْمَرُ فَقَدْ يَظْهَرُ أَوْ يَظْهَرُ.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، ص132.

² محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1884، ج14، ص289-290.

³ طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د ط)، 1998، ص19.

أما الحذف لدى البلاغيين، فنجده يَحْمِلُ الكثير من الدلالات كالاختصار والتقدير والتأويل أي هناك غايات مقصودة وراء الحذف، دعت

إلى التخلي عن عنصرها داخل التركيب لدلالة باقي العناصر عليه ولأهمية هذه الظاهرة خصها الجرجاني بالدراسة، وأشار إلى دقتها ومكانتها لدقائق الأمور وهو ما يوضحه عبد القاهر الجرجاني بقوله: " هو بابٌ دقيق المسلك لطيف المآخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تتطرق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُن" ¹.

فعبد القاهر في هذا التعريف لم يشر إلى التعريف اللغوي للحذف، بل أعطانا المعنى البلاغي، وأشار إلى الجمال الذي يريده الحذف في التراكيب اللغوية، وتطرق إلى روعة سحره، وغرابة أمره إذ أنك تجد المعنى رغم أنك لا تجد اللفظ الذي يدل عليه.

وقد أخذ عبد القاهر يستعرض الأمثلة والشواهد المدعمة لرأيه في الحذف فنجده يشير إلى إضمار الفعل وإعماله محذوفًا بقوله:

دِيَارَ مِيَّةٍ إِذْ مِيٌّ تُسَاعِدُنَا وَلَا يُرَى مِثْلَهَا عُجْمٌ وَلَا عَرَبٌ ²

أنشده بنصب (ديار) على إضمار الفعل، كأنه قال: أذكر ديار مية.

كما تحدث عن مواضع حذف المبتدأ، حيث يقول: " ومن مواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ، (القطع والاستئناف)، يبدؤون بذكر الرجل، ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول، ويستأنفون كلامًا، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ" ³.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص146.

² ذو الرمة، الديوان، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1995م، ص11.

³ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص147.

ومثال ذلك قوله:

وَعَلِمْتَ أَنِّي يَوْمَ ذَا قَوْمٍ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ
كَمْ مُنَازِلٍ كَعَبًا وَنَهْدًا
يُد تَتَمَّرُوا خَلْقًا وَقَدًّا¹
أي: هم قوم.

فيعلق عبد القاهر الجرجاني على الأبيات السابقة ويبيِّن جمال الحذف فيها فيقول: " فتأمل الآن هذه الأبيات كُلِّها، واستقرها واحدًا واحدًا، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف وإذا أنت مررت بموضع الحذف منها فَلَيْتَ النَّفْسَ عَمَّا تَجِدُ، وألطفَت النظر فيما تُحِسُّ به، ثم تكَلَّف أن تُرَدِّ ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سَمْعِكَ، فإنك تعلم أن الذي قُلْتُ كما قُلْتُ، وأن رُبَّ حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"².

ومن الأمثلة عن جمال هذا الفن - الذكر والحذف - في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف، 22] فالمبتدأ هنا محذوف والتقدير: (هُم) ثلاثة و(هُم) خمسة و(هُم) سبعة، وقد حذف هنا للتخفيف على السامع أو القارئ لعلمه بالمحذوف حيث أن الإتيان به لا يزيد معنى³.

ويقول عبد القاهر الجرجاني عن حذف المبتدأ: " وإذ قد عرفت هذه الجملة من حال الحذف في المبتدأ، فاعلم أن ذلك سبيله في كل شيء، فما من اسم أو فعل تجده قد حذف

¹ عمرو بن معدى كرب الزبيدي، الديوان، جمعه: مطاع الطرابيشي، مطبوعة مجمع اللغة العربية، دمشق، ط2، 1405هـ - 1985م، ص80.

² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص151.

³ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، دار الفكر بدمشق، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، (د ط)، (د ت)، ص23.

ثم أصيب به موضعه وحذف في الحال ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وأنس من النطق به¹.

ومن المواضع الأخرى التي ورد فيها الحذف عند الإمام عبد القاهر الجرجاني حذف (المفعول به) الذي فضّله عبد القاهر على حذف المبتدأ بقوله: "إنّ الحاجة إليه أمس، وهو بما نحن بصدده أخص وللطائف كأنّها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر"².

وقد قسم الجرجاني حذف المفعول به إلى قسمين هما:

القسم الأول: حذف المفعول لإثبات معنى الفعل لا غير، ومثال ذلك قول الناس "فلان يحلّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويضُرّ وينفَع"، والمقصود في جميع ذلك إثبات المعنى في نفسه للشيء من غير أن يتعرض لحديث المفعول، حتى كأنك قلت "صارَ بحيثُ يكونُ منه حلٌّ وعقدٌ وأمرٌ ونهْيٌ، وضُرٌّ ونفَعٌ، وعلى هذا القياس"³.

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، 09] المعنى: هل يستوي من له علمٌ ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر، 68] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [43] ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم، 43-44] وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم، 48] المعنى هو منه الإحياء والإماتة والإغناء والافتناء، وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن تثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء، وأن تخير بأن من شأن أن يكون منه أو لا يكون منه، فإن الفعل لا يعدى هناك، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى⁴.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص152-153.

² المرجع نفسه، ص153.

³ المرجع نفسه، ص154.

⁴ المرجع نفسه، ص155.

القسم الثاني: وهو أن يكون فيه للفعل مفعول مقصود قصده معلوم، إلا أنه يُحذف من اللفظ لدليل الحال عليه وينقسم إلى جلي لا صنعة فيه، وخفي تدخله الصنعة. فمثال الجلي قولهم "أصغيت إليه"، وهم يريدون "أذني"، و"أغضيت عليه"، والمعنى "جفني" وأما الخفي الذي تدخله الصنعة فيفتنن ويتنوع.

فروع منه، أن يكون معك مفعولٌ معلومٌ مقصودٌ قصده، قد علم أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواه، بدليل الحال أو ما سبق من الكلام، ومثال ذلك قول عمرو بن معدى كرب:

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحَهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ¹

(أجرت) فعلٌ متعدُّ، ومعلوم أنه لو عداه إلا إلى ضمير المتكلم نحو "ولكن الرماح أجرتني"، وأنه لا يتصور أن يكون ههنا شيء آخر يتعدى إليه، لاستحالة أن يقول "فلو أن قومي أنطقتني رماحهم"، ثم يقول "ولكن الرماح أجرت غيري"، إلا أنك تجد المعنى يلزمك أن لا تتطرق بهذا المفعول ولا تُخرجه إلى لفظك. والسبب في ذلك أن تعديتك له تُوهم ما هو خلاف الغرض، وذلك أن الغرض هو أن يُثبت أنه كان من الرماح إجراراً، وحبسٌ للألسن عن النطق، وأن يصح وجود ذلك².

ومن بارع ذلك ونادره، قول طفيل الغنوي لبني جعفر بن كلاب:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتَ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَرَلْتَ
أَبَا أَنْ يَمْلُونَا، وَلَوْ أَنَّ أَمْنَا تُلَاقِي الَّذِي يَلْفُونَ مِنَّا لَمَلْتَ
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَالْجَاوَا إِلَى حَجَرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظْلَتِ³

فقد حذف المفعول المعين في أربعة مواضع، قوله (لملت) و(ألجأوا) و(أدفأت) و (أظلت) لأن الأصل (لملتنا) و(ألجأونا) إلى حجات أدفأتنا وأظلتنا، إلا أن الحال على ما

¹ عمرو بن معدى كرب الزبيدي، الديوان، جمعه: مطاع الطرابيشي، ص 73.

² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 157.

³ طفيل الغنوي، الديوان، تح: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997م، ص 130.

ذكرت لك من أنه في حدّ المنتاس حتى كأن لا قصد إلى مفعول، وكأن الفعل قد أبهم أمره، فلم يُقصد به قصدُ شيء يقع عليه، كما يكون إذا قلت (قد مل فلان) تريد أن تقول (قد دخله الملال) من غير أن تخصّ شيئاً، بل لا تزيد على أن تجعل الملال من صفته¹.

ويعد أن عرض عبد القاهر الجرجاني جمال حذف المفعول به في الشعر، نجده قد انتقل إلى بيان هذا الجمال في النظم القرآني المعجز، حيث استظهر جمال حذف المفعول به في القرآن الكريم وذلك في قوله: " وإن أردت أن تزداد تبياناً لهذا الأصل، أعني وجوب أن تسقط المفعول لتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوبٌ فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [23-24] ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى: (وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم) و (امرأتين تذودان غنهما) و (قالتا لا نسقي غنمنا) (فسقى لهما غنهما)².

ثم إنّه لا يخفى على ذي بصرٍ أنّه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذوداً، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقى حتى يُصدر الرعاء، وأنه كان موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى. فأماً ما كان المسقى؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض، وموهمٌ خلافه. وذاك أنه لو قيل وجد من دونهم امرأتين تذودان غنهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذوداً، بل من حيث هو ذوداً غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود³.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، ص159.

² المرجع نفسه، ص161.

³ المرجع نفسه، ص161-162.

وهكذا فقد توصل الإمام الجرجاني في مسائل الحذف إلى نتائج قيمة قد أُنِعت ثمارها وبان جمالها وأكد هو على فضل جهوده في استنباط دقائق الحذف من أعماق المعنى ومدى ارتباطها بتراكيب الكلام، فيقول: " قد بان الآن واتضح لمن نظر نظر المُتَنَبِّت الحصيف الراغب في اقتداح زناد العقل، والازدياد من الفضل ومن شأنه التوق إلى أن يعرف الأشياء على حقائقها، ويتغلغل إلى دقائقها، ويرتأ بنفسه عن مرتبة المقلد الذي يجري من الظاهر ولا يعدو الذي يقع في أول خاطر أن الذي قلت في شأن (الحذف) وفي تفخيم أمره والتنويه بذكره وأن مأخذه مأخذ يشبه السحر، وببهر الفكر كالذي قلت"¹.

3- الفصل والوصل:

الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف أو الاستئناف والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند الحاجة إليها، ولذلك فهو صعب المسلك لطيف المغزى كثير الفائدة غامض السر لا يوفق للصواب فيه إلا من أوتي حظاً من حسن الذوق وطُبع على البلاغة ورُزق بصيرة نقادة في إدراك محاسنها، ولصعوبة ذلك جُعِل حدًا للبلاغة، ألا ترى إلى بعض البلغاء وقد سئل عن البلاغة فقال: " هي معرفة الفصل والوصل، فجعل ما سواه تبعاً ومفتقراً إليه وليس بالخفي أنه لم يرد بذلك إلا التنبيه على غموضه وجليل خطره وأن أحداً لا يكمل في معرفته إلا كمل في سائر فنونها"²، وفي هذا يقول الجرجاني: " اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تُستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُص، وإلا قومٌ طُبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد"³.

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص171.

² أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ - 1993م، ص162.

³ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص222.

ويقول أحمد الهاشمي: " فالوصل عطف جملة على أخرى بالواو ونحوها، والفصل ترك هذا العطف"¹.

كما نبّه الجرجاني إلى فائدة العطف في المفرد، لينتظر بعد ذلك إلى الجملة والتعرف على حالها حيث يقول: " ومعلومٌ أن فائدة العطف في المفرد أن يُشرك في إعراب الأول، وأنه إذا أشركه في إعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب، نحو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثله، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعولٌ به أو فيه أو له شريك له في ذلك"².

وبهذا الإيجاز عرض عبد القاهر الجرجاني فائدة العطف بين المفردات ليصل منه إلى العطف في الجمل، والجمل المعطوف بعضها على بعض عنده على ضربين:
-أحدهما: أن يكون للجملة المعطوف عليها موضع من الإعراب:

وإذا كانت الجملة كذلك كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد، كان عطف الثانية عليها جاريًا مجرى عطف المفرد على المفرد، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرًا، والاشتراك بها في الحكم موجودًا. فإذا قلت " مررت برجل خُلقه حسن وخُلقه قبيح، كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جرّ بأنها صفة للنكرة. ونظائر ذلك يكثر والأمر فيها يسهل"³.

ويتبين لنا من قول الجرجاني أنه قد أكد على الناحية النحوية في الموضوع ولم يعنى به من الناحية البلاغية، فالجملة الأولى (خُلقه حسن) جملة اسمية جاءت وصفًا لرجل والجملة الثانية (وخُلقه قبيح) معطوفة عليها تتبعها في الإعراب فهي في محل جر لأنها معطوفة على جملة وقعت صفة وهي في محل جر، وقد حذفنا كلمة رجل لأنها مفهومة من سياق الجملة الأولى.

¹ السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة (في المعاني والبيان والبديع)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط3، (د ت)، ص179.

² الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، ص222.

³ المرجع نفسه، ص223.

- أما الضرب الثاني من عطف الجملة على أخرى ففيه إشكال " وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى، كقولك " زيد قائمٌ، وعمرو قاعدٌ " والعلم حسن، والجهل قبيح، لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن " الواو " أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه. فإذا كان كذلك، فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه، ولمَ لم يستو الحال بين أن تعطف وبين أن تدع العطف فتقول " زيدٌ قائمٌ، عمرو قاعدٌ " بعد أن لا يكون هنا أمرٌ معقول يُؤتى بالعاطف ليُشرك بين الأولى والثانية فيه؟"¹.

ونجد أن البلاغيين قد اهتموا اهتمامًا بالغًا بالعطف "بالواو" دون غيرها من حروف العطف وذلك لأن تلك تفيد مع الإشراك معاني، مثل أن "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخٍ، و "ثم" تُجبه مع تراخٍ، و " أو " تردّد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه، فإذا عطفت بواحدةٍ منها الجملة على الجملة، ظهرت الفائدة. وليس " للواو " معنى سوى الإشراك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي أتبعته فيه الثاني الأول².

والعطف يقتضي أمرين اثنين هما " التغاير والتشريك " فإذا قلنا " نجح محمدٌ وزيدٌ " فإنّ هذا العطف يدلنا على أنّ محمد غير زيد، ولكنهما اشتركا في أمرٍ واحدٍ هو النجاح. فإذا انتفى التغاير والتشريك لم يحسن العطف.

ثم ينتقل عبد القاهر الجرجاني إلى الحديث عن المواضع التي يحسن فيها العطف بالواو وذلك إذا كان في الكلام ما يشبه التضاد أو أردت ذكر أمرين لا يُتصور فصل أحدهما عن الآخر ومثال الأول يقول الجرجاني: " واعلم أنه إذا كان المُخْبِرُ عنه في الجملتين واحدًا كقولنا هو يقول ويفعل، ويضُرُ وينفعُ، ويُسِيءُ ويُحسنُ، ويأمرُ وينهى، ويَحُلُّ

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص223.

² المرجع نفسه، ص224.

وَيَعْقُدُ، وَيَأْخُذُ وَيُعْطِي، وَيَبِيعُ وَيَشْتَرِي، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذٍ صريحاً¹.

ومما حسنَ فيه الواو، زيادةً على ما مر - أي وجود ما يشبه التضاد - هو أنك إذا حذفت الواو، فقلت: يعطي يمنع، يحسن يسيء يمكن أن توهم في كلامك أنك غلطت، أو تراجع، فقلت أولاً يعطي، ولكنك أردت أن تتراجع عن هذا القول، فقلت يمنع ترك العطف بسبب هذا الإيهام، ومن هنا جاء هذا العطف في موضعه وموقعه، كما رأيت².

ومثال الثاني وهو الجمع بين أمرين لا تريد أفراد أحدهما عن الآخر، كقولك " العجبُ من أنني أحسنتُ وأسأت " و " يكفيك ما قُلتُ وسمعتُ " و " أَيْحَسُنُ أَنْ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ؟ وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد. ومن البين في ذلك قوله:

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَتُكْرِمَكُمُ، وَأَنْ نَكُفَّ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذِنَا³

المعنى: لا تطمعوا أن تروا إكرامنا قد وُجد مع إهانتكم، وجامعها في الحصول⁴

ومما لطف فيه موقع العطف، قولُ أبي تمام:

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا وَتَذَكَّرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ وَتَفْضُلَا⁵

فهو يوِّدُ أن يجمع بين أمرين: القول منه، والفعل من ممدوحه، وذكره للمناقب والفضائل، وبذل ممدوحه وتفضله⁶.

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص226.

² فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للطباعة والنشر، إريد، ط4، 1417هـ-1997م، ص399.

³ الفضل بن عباس اللّهي، الديوان، تح: مهدي عبد الحسين النجم، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، ط1، 1419هـ-1999م، ص42.

⁴ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص226.

⁵ الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، تح: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1414هـ-1994م، ج2، ص47.

⁶ فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ص400.

كما يذهب الجرجاني لِيُبَيِّنَ أن العطف بالواو لا يحسن في جميع المواضع، وذلك أن بعض المواضع تقتضي الفصل حتى يستقيم المعنى معتمداً على نصوص من القرآن حتى يبين دور التركيب اللغوي في إعجاز القرآن الكريم، والفصل يستوجب ترك العطف في الربط بين الأسماء والجمل حيث يقول الجرجاني: " وأعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله وربط يربطه، وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها"¹.

فالاستغناء عن حرف العطف يكون إذا كانت الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى ومبينة لها، ذلك أن الصفة لا تكون غير الموصوف والتأكيد غير المؤكد، وقد بين هذه الفروق في تحقيق المعنى وإثبات فكرة إعجاز القرآن من خلال قوله تعالى: ﴿ألم ﴿1﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة، 1-2] قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وزيادة تبيين له، وبمنزلة أن تقول (هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتاب) فتعيده مرة ثانية لتثبته، وليس يُثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميُّز به عنه فيحتاج إلى ضامٍّ يضمُّه إليه، وعاطف يعطفه عليه².

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿6﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة، 6-7] قوله تعالى: (لا يؤمنون) تأكيد لقوله: (سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم)، وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثانٍ أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم يُنذر، كان في غاية الجهل، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة³.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، ص227.

² المرجع نفسه، ص227.

³ المرجع نفسه، ص228.

فمعنى التأكيد المستفاد من الفصل في الآيتين كان مضاعفاً مما زاد التركيب قوة وبيانياً، فكان التأكيد الثاني أبلغ من الأول رغم ترك العطف، وهذا بيان لإعجاز النص القرآني لأن دقة التركيب القرآني وبلاغته لا يتمكن منها حتى أبلغ الناس فكانت جهود الجرجاني في إثبات مواضع الفصل والوصل وبيان معانيها أكثر حجية في دفع بدع المعتزلة حول إعجاز القرآن الكريم.

وأما ما تعددت أوجه الفصل في كونه تأكيداً وصفة قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف، 31] وذلك أن قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مشابه لقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ ومُداخلٌ في ضمنه من ثلاثة أوجه: وجهان هو فيهما شبيهه بالتأكيد ووجه هو فيه شبيهه بالصفة.

فأحد وجهيه كونه شبيهاً بالتأكيد، هو أنه إذا كان ملكاً لم يكن بشراً، وإذا كان كذلك كان، إثبات كونه ملكاً تحقيقاً لا محالة، وتأكيداً لنفي أن يكون بشراً¹.

والوجه الثاني: إذا قيل (ما هذا بشراً، وما هذا بآدمي) والحال حال تعظيم وتعجب مما يشاهد في الانسان من حُسْنِ خُلُقٍ أو خُلُقٍ...حتى إنه يكون مفهوم اللفظ وإذا كان مفهوماً من اللفظ قبل أن يذكر كان ذكره إذا ذكر تأكيداً لا محالة، لأن حد التأكيد أن تحقق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبق منك.

والوجه الثالث: الذي هو فيه شبيهه بالصفة فهو أنه إذا كان نفي أن يكون بشراً فقد أثبت له جنس سواه إذ من المحال أن يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل في جنس آخر².

فالجرجاني يرى أن اشتراك الوجهين في كون الفصل شبيهاً بالتأكيد كان إثباتاً لكونه ملكاً وتأكيداً لنفي صفة البشر عنه في الوجه الأول، أما الوجه الثاني في كونه تأكيداً فقد ربطه الجرجاني بالمعنى المتحقق عن اللفظ وهو معنى الشمول الذي يستفاد من ألفاظ

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص 229.

² المرجع نفسه، ص 230.

التوكيد، أما معنى الصفة فيتحقق بنفي صفة البشر عنه وإثبات المخاطب لأنَّ تحديد الصفة لشخص معين يزيل اللبس عن السامع فلا يحتاج من المتكلم تحديد الشخص المتحدَّث عنه. وقد استمرَّ الجرجاني في تقديم الأمثلة مؤكِّدًا القيمة البلاغية والدلالية التي تتحقق في الفصل أو الوصل، ثمَّ انتهى في شأن فصل الجمل ووصلها إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

1- جملةٌ حالها مع التي قبلها حالُ الصِّفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطفُ البتَّة، لشبه العطف فيها، لو عَطِفَتْ بِعَطْفِ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ.
2- وجملةٌ حالها مع التي قبلها حالُ الاسم يكون غير الذي قبله إلاَّ أنه يشاركه في الحكم، ويدخل معه في معنى، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ كَلَا الاسْمِينَ فَاعِلًا أَوْ مَفْعُولًا أَوْ مَضَافًا إِلَيْهِ، فَيَكُونُ حَقُّهَا الْعَطْفُ

3- وجملةٌ ليست من الحاليين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم لا يكون منه في شيء، فلا يكون إِيَّاه ولا مشاركًا له في معنى بل هو شيء إن ذُكِرَ إِلَّا بِأَمْرٍ يَتَقَرَّدُ بِهِ، وَيَكُونُ ذِكْرُ الَّذِي قَبْلَهُ وَتَرْكُ الذِّكْرِ سَوَاءً فِي حَالِهِ، لِعَدَمِ التَّعْلُقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ رَأْسًا، وَحَقُّ هَذَا تَرْكُ الْعَطْفِ الْبِتَّةِ¹.

فتترك العطف يكون إمَّا للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطةٌ بين الأمرين، وكل له حالٌ بين الحاليين، فاعرفه.

رابعًا: الإعجاز اللغوي البياني عند الجرجاني:

1- بلاغة الاستعارة:

لقد نالت الاستعارة اهتمام البلاغيين منذ القديم، فهم يعملون على دراستها وتعريفها وإظهار حُسْنِهَا، وبيان بلاغتها، ويتبارون في تقسيمها، وتوضيح الهدف منها، وبيان علاقتها بغيرها من الصور البلاغية الأخرى، فللاستعارة أهمية كبيرة في العمل الأدبي، لما تنطوي عليه من وظائف تكسب المعنى قيمة جمالية إلى جانب قيمتها التعبيرية، فقد كتب فيها

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص243.

الكثير، ومن بين الذين أبدعوا في إبراز قيمتها الجمالية نجد " عبد القاهر الجرجاني " حيث يعرفها بقوله: " أن يكون اللفظ أصل في الوضع اللغوي المعروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حيث وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية"¹.

ويقول في موضع آخر: " واعلم أنه قد كثر في كلام الناس استعمال لفظ النقل في الاستعارة فمن ذلك قولهم إن الاستعارة تعليق العبارة عن غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل"².

الناظر إلى هذه التعريفات يجدها قريبة من تعريفات السابقين فالاستعارة هي نقل للكلمة من معناها اللغوي إلى معنى آخر لم تعرف به، أو هي لفظ أُستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي الموضوع له مع قصد المبالغة وأركانها ثلاثة مستعار، ومستعار منه، ومستعار له.

فالمستعار وهو لفظ المشبه به، ومستعار منه، وهو معنى اللفظ المشبه، ومستعار له، وهو المعنى الجامع³

لكن الجديد لدى الجرجاني يتجلى في بيان حقيقة الاستعارة وتحديد طبيعتها فهي ليست مجرد نقل وإنما هي ادعاء، وبهذا جعل الجرجاني فكرة النقل أساساً وخطوة لعملية الاستعارة فبعد إثبات هذا المبدأ الأساسي، انتقل إلى حقيقة الاستعارة والصورة التي تظهر بها بداخلها من معاني، فبدأ بتأكيد فكرة الادعاء في الاستعارة حيث يقول: " فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء، وإذا أثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت أن الذي قالوه من أنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في

¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، ط1، 1991، ص30.

² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص434.

³ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1394هـ-1974م، مج3، ص150.

اللغة، ونقل لها عما وضعت له كلام قد تسامحوا فيه لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم، لم يكن الاسم مُزَالاً عما وضع له، بل مقرّاً عليه¹.

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتُعيّره المشبه وتجريه عليه وتريد أن تقول رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً وقد قسم الجرجاني الاستعارة إلى قسمين: مفيدة وغير مفيدة.

أ- الاستعارة غير المفيدة:

وهو نوع قصير الباع، قليل الاتساع، حيث تراهم قد وضعوا للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب أجناس الحيوان بقصد التوسع في اللغة، ومثّل لها بأمثلة منها قول العجاج (وَفَاحِمًا وَمِرْسَنًا مُسْرَجًا) فالاستعارة عند عبد القاهر هي لفظ (المرسن) الذي هو في الاصل للحيوان. فاستعاره الشاعر لمحبوته. ويعقب الجرجاني أن الشاعر إذا استعمل شيئاً في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره منه، ونقله عن أصله، وجاز به موضعه، ويُعدُّ عبد القاهر هذا النوع من الاستعارة مبتذلة.

ب- الاستعارة المفيدة:

فهو النوع الذي يُعتد به فهي جامعة لصفات الحسن، والجمال، والروعة الفنية ومبناها التشبيه " وهي تعمل على بيان الفكرة وتوضيحها، لأنها تبرز البيان في صورة مستجدة، تزيد قدرًا ونبلًا، حتى ترى بها اللفظة المفردة قد تكرّرت في مواضع، ولها في كل موضع معنى مفرد، وهي تعطي الكثير من النعاني بالقليل من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتُجني من الغصن الواحد أنواع الثمر².

وانطلاقاً من هذا النص يكشف لنا عبد القاهر عن فائدة الاستعارة التي تتخلص عنده في إبراز الفكرة واضحة جليّة، وإظهار الصورة في مظهر حسن تعشقه النفوس، وتميل إليه

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص437.

² ينظر: الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص42-43.

القلوب، وتهتز له العواطف وتتغذى به الأسماع: " فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس مبنية، والمعاني الخفية بادية جليلة إن شئت أرتك المعاني اللطيفة - التي هي من خبايا للعقل- كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون"¹.

ثمّ قسم الاستعارة المفيدة قسمين: استعارة تصريحية واستعارة مكنية وإن لم يشر إلى التسمية لكنه أشار إلى الأولى بقوله: " أن تنقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجربه عليه متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف، وذلك كقولك: (رأيت أسد) وأنت تعني رجلاً شجاعاً، ورئت لي طبيبة وأنت تعني امرأة، وما شاكل ذلك، فالاسم في هذا كله كما تراه، متناولاً شيئاً معلوماً يمكن أن ينص عليه، فإنه يقال عني بالاسم وكنتى به عنه، ونقل عن مسماه الأصلي، فجعل اسماً له على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه"².

وأشار إلى الثانية بقوله: " أن يؤخذ الاسم عن حقيقته، ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشار إليه، فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي أستعير له، وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه، ومثاله قول لبيد:

وَعْدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقِرَّةً إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا³

وذلك أنه جعل للشمال يدًا، ومعلوم أنه ليس هناك مُشار إليه، ويمكن أن تجري اليد عليه، كإجراء الأسد والسيف على الرّجل في قولك (انبرى لي أسد يزأر) و (سللت سيفاً على العدو لا يُقَل)⁴

وقد اشترط عبد القاهر في الاستعارة أن يكون وجه الشبه، وهو الرابطة بين المستعار منه والمستعار له، أوضح في المستعار منه. كما أنه قسم الاستعارة محسوس لمعقول،

¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص43.

² المرجع نفسه ، ص44.

³ لُبيد بن ربيعة، الديوان، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ-2004م، ص114.

⁴ الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص45.

واستعارة محسوس لمحسوس للشبه في أمر معقول، واستعارة معقول لمعقول " إنَّ ما يجب أن تعلم أن في معنى التقسيم لها، أنها على أصول:

-أحدهما: أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة.

-ثانيهما: أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلي.

-ثالثها: أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول¹.

ثم اتَّبَعَ هذا التقسيم بالتمثيل لكل ضرب، فمثل للضرب الأول (باستعارة النور للبيان والحجة) والضرب الثاني بقوله ﷺ " إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءُ الدَّمَنِ "، والضرب الثالث بتشبيه الوجود بالعدم والعدم بالوجود.

وقد حاول عبد القاهر مناقشة بعض النصوص القرآنية، لتبيين سرِّ الإحكام في بنائها، من ذلك مناقشته للآية القرآنية التي تصور انتهاء طوفان نوح الذي أغرق أعداءه الذين لم يسمعوا نصيحته، هذا الموقف يصوره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَ يَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود، 44] يناقش عبد القاهر الجرجاني سر بلاغة هذه الآية، قائلاً: " أتَّكَّ لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقرها إلى آخرها وأنَّ الفضل تتأجج ما بينها، وحصل من مجموعها؟²."

فالإمام هنا يؤكد أنه لا يمكن أن يكون إعجاز الآية راجعاً إلى بلاغة ألفاظها، ذلك أننا نستطيع أن نأخذ كل لفظ منها على حدة، فنجد له لفظاً عادياً، ويتأمل هذه الكلمات مثل (ابلي) أو (قيل) أو (استوت) فإننا نجد لها كلاماً عادياً مما تستعمله اللغة العادية في بناء

¹ الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص66.

² المرجع نفسه، ص45.

أساليبها وتراكيبها، ولكن موطن الإعجاز الحقيقي يرجع إلى جمال النظم في التركيب، وشدة الملاءمة بين اللفظ والمعنى التي تكمن وراء التعبير.

ويؤكد ذلك في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم، 04] ومن ذلك أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ولم يروا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة¹.

ويستمر عبد القاهر في شرحه لهذه الآية بقوله: " ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده، مبيئا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم " طاب زيد نفسا، وقرَّ عمرو عينا، وأشباه ذلك، مما تجد الفعل فيه منقولا عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه، وذلك أننا نعلم أن " اشتعل " للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما أن طاب للنفس و" قرَّ " للعين، و " نَصَّبَبَ " للعرق و إن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك"².

ثم نجد شرح المثال بقوله: " وتوحي به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسند إلى الشيب صريحا فنقول " اشْتَعَلَ شَيْبُ الرَّأْسِ"، والشيب في الرأس، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن، وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت فما السبب في أن كان " اشْتَعَلَ " إذا أُسْتَعِيرَ للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بان بالمزية في الوجه الآخر هذه البيونة؟ فإن السبب أنه يفيد مع لِمَعَانَ الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه وأخذ من نواحيه، وأنه قد استقر به وعمَّ جملته، حتى لم

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص100.

² المرجع نفسه، ص101.

يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يُعتد به وهذا ما لا يكون إذا قيل اشتعل شيب الرأس، أو الشيبُ في الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة¹.

ووازن هذا أنك تقول " اشتعل البيت نارًا "، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه، وتقول " اشتعلت النار في البيت "، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه، وإصابتها جانبًا منه، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة².

يقول الجرجاني أيضًا " ونظير هذا في التنزيل، قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر، 12] التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول هاهنا مثل الذي حصل هناك، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت بذلك من معنى الشمول صارت عيونًا كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو جرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض. لم يفد ذلك ولم يدل عليه وكان المفهوم منه أن الماء قد فَرَّ من عيون متفرقة في الأرض وتَبَجَّسَ من أماكن منها"³.

وقد أشار السيد قطب إلى جمال هذه الآية بقوله: " إِنَّ الْجَمَالَ فِي (اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) وَ(فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) هُوَ فِي ذَلِكَ الَّذِي قَالَهُ مِنْ نَاحِيَةِ النِّظْمِ، وَفِي شَيْءٍ آخَرَ وَرَاءَهُ، هُوَ هَذِهِ الْحَرَكَةُ التَّخِيلِيَّةُ السَّرِيعَةُ، الَّتِي يَتَصَوَّرُهَا التَّعْبِيرُ حَرَكَةَ الْاِشْتِعَالِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ الرَّأْسَ فِي لَحْظَةٍ، وَحَرَكَةَ التَّفْجِيرِ الَّتِي تَفُورُ بِهَا الْأَرْضُ فِي وَمِضَةٍ، فَهَذِهِ الْحَرَكَةُ التَّخِيلِيَّةُ تَمَسُّ الْحَسَّ وَتُثِيرُ الْخِيَالَ وَتَشْرِكُ النَّظَرَ وَالْمَخِيلَةَ فِي تَدْوُقِ الْجَمَالِ"⁴.

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 101.

² المرجع نفسه، ص 101.

³ المرجع نفسه، ص 102.

⁴ سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص 33.

2- بلاغة الكناية:

يقرر الجرجاني في معرض حديثه عن ضروب الكلام أنه على ضربين: " ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده...وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده"¹، إنَّ مدار هذا الضرب يقوم على الكناية والاستعارة والتمثيل فكلها تلتقي عند مفهوم (المعنى ومعنى المعنى) الذي يوضحه الجرجاني بقوله: " تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى، أن تعقل من اللفظ معنًى، ثمَّ يُفصي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"².

فالكناية تندرج ضمن مفهوم معنى المعنى كما يعرفها الجرجاني بقوله: " والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنًى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنًى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئى به إليه ويجعله دليلاً عليه"³.

فيكون اللفظ المذكور علامة يُستدل بها على المتلقي الحاذق على مُراد المتكلم وليس المقصود من اللفظ ذاته، كما يرى عبد الحكيم راضي أن منحى الانحراف الدلالي في الكناية واضح، فالكناية تقدم المعنى بصورة خاصة، وتسم النص بصبغة جمالية خاصة، ويتبين أن المبدع هو الذي يقوم باختيار الألفاظ وقصد المعنى الذي يريده⁴، فتكون بذلك صورة الدفع للقارئ الذي لا يُعطى جاهزاً بل يعتمد على نفسه من أجل بلوغه، وذلك بتأويل الكلام وحمله على الوجه الذي يرمى إليه.

والكناية واسعة متشعبة كفنون البيان الأخرى، وكان السابقون قد تحدثوا عنها وذكرها بعض أغراضها ولكنهم لم يستطيعوا أن يُقسّموها كما قَسَمَهَا عبد القاهر وأن يكشفوا عن جوهرها كما كشف وأبان، لقد تحدث عن الكناية المطلوب بها نفس الصفة وضرب لها مثلاً

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص262.

² المرجع نفسه، ص263.

³ الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص66.

⁴ عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003م، ص248.

بقولهم: " هو طويل النَّجاد يريدون طويل القامة " و " كثير رماد القدر " يَعْنُونَ كثير القرى، وفي المرأة " نؤوم الضحى " والمراد أنها مترفة مخدومة لها ما يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كله كما ترى أن القامة إذا طالت طال النَّجاد وإذا كثر القرى كثر رمادُ القدر وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها رِدْفَ ذلك أن تنام إلى الضحى¹.

فبعد القاهر ينص هنا على ثنائية المعنى الكنائي، وعلى تعلقهما ببعضهما، حتى ليصير المعنى الثاني تابعاً للأول، ولعل ما يميز الكناية هذا الخفاء العجيب الذي يصور المعاني ويبرزها في أفخم تعبير وأبدع صورة²، ذلك أن المعنى المراد لا يتحقق بمجرد النظر إلى اللفظ الظاهر، وإنما المراد ما يفهم من ذلك اللفظ، فلا يَصِلُ المتلقي إليها إلا إذا انتقل من الظاهر إلى الباطن.

كما تكلم عبد القاهر الجرجاني على الكناية في إثبات الصفة وهي ما نسميه الكناية عن النسبة كقول زياد الأعجم:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةِ ضُرْبَتِ عَلِيٍّ ابْنِ الْحَشْرَجِ³

أراد أن يثبت هذه الأوصاف خلافاً للممدوح وضرائب فيه، فترك أن يُصْرَحَ فيقول " إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى لمجموعة في ابن الحشرج، أو مقصورةً عليه، أو مُخْتَصَّةً به"، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها، وَعَدَلَ إلى ما ترى من الكناية والتلويح، فجعل كونها في القُبَّةِ المضروبة عليه، عبارةً عن كونها فيه، وإشارةً إليه، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج من الجزالة، وظهر فيه أنت ترى من الفخامة، ولو أنه أسقط هذه الوساطة من البين، لما كان إلا كلاماً غُفلاً، وحديثاً ساذجاً⁴.

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص66.

² بشير كحيل، الكناية في البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2004م، ص1.

³ زياد الأعجم، الديوان، تح: يوسف حسين بكار، دار المسيرة، ط1، 1403هـ-1983م، ص49.

⁴ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص307.

ويضرب عبد القاهر كثيرًا من أمثلة الكناية عن الصفة، والكناية عن إثبات الصفة، مُبينًا أن من شأن الكناية الواقعة في نفس الصفة أن تجيء على صورٍ مختلفة، كذلك من شأنها إذا وقعت في طريق إثبات الصفة أن تجيء على هذا الحدّ، ثم يكون في ذلك ما يتناسب، كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها، ومما هو إثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض، قولهم " المجد بين ثوبيه، والكرم في بُرديه" وذلك أن القائل هذا يتوصّل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه، كما توصّل زياد إلى إثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشر¹.

وقد يجتمع في البيت الواحد كنايتان، المغزى منهما شيء واحد، ثم لا تكون إحداها في حكم النظير للأخرى². ومثال ذلك قول ابن هرمة:

لَا أُمْتَعُ الْعُودَ بِالْفِصَالِ وَلَا أَبْتَاعُ إِلَّا قَرِيْبَةَ الْأَجْلِ³

فمعنى الجملة الأولى أنه لا يترك الفصيل لأمه تستمتع به، أي أنه يذبحه لأضيافه، وهذا المعنى يؤدي بك في يسرٍ إلى أنه كريم، يذبح النوق للضيّافان، ودلالة المعنى الأول على معنى الثاني بيّنة لا خفاء فيها⁴.

كذلك قول الشاعر:

وَمَا يَكُ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ.

فهو كناية عن الكرم كذلك، فالفصيل ابن الناقة إلا أن كثرة الضيوف وما يشربونه من لبن النياق تجعل الفصيل مهزولاً لا يشبع حليب أمّه.

تعليق: والذي يتأمل دراسة عبد القاهر الجرجاني السابقة للكناية، يجد أن هذا الفن قد ظفر بعناية فائقة، ودراسة متأنية، وبحث عميق، كما يجد أن شواهد كانت من فرائد الشعر

¹ الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص309-310.

² المرجع نفسه، ص312.

³ ابراهيم بن هرمة الفرشي، الديوان، تح: محمد جبّار المُعبيد، مكتبة لسان العرب، (د ط)، 1389هـ-1969م، ص183.

⁴ أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص231.

العربي، التي أتاحت له التدوق الجمالي والنظرات التحليلية، وذلك لما له من حسٍ مُرَهَفٍ، وبصيرةٍ نافذة.

ومع موافقتنا التامة على مذهب عبد القاهر، ورضانا الكامل بمنهجه، إلا أنّ هناك بعض الملاحظات الهينة التي لا تنقص من ذلك البناء الشامخ شيئاً، ولا تقلل من قيمته، ومن بين هذه الملاحظات نجد أنّ عبد القاهر في دراسته للكناية قد اعتمد على الشواهد الشعرية دون التطرق إلى دراسة بعض الشواهد القرآنية، ولا شك أنّ هذا الصنيع من عبد القاهر يدلُّ دلالة واضحة على اهتمامه بالشعر اهتماماً كبيراً، واعتقاده أنّه، الوسيلة إلى بيان أسباب البلاغة والفصاحة، وأنّه الطريق إلى بيان إعجاز القرآن، لذلك رأينا أن نأخذ بعض من النماذج والشواهد القرآنية لتوضيح جمال الكناية وروعيتها.

ومن بين هذه الشواهد:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء، 29] يفسّر (الإمام الرازي) هذه الآية بقوله: " أي لا تُمَسِّك عن النفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صِلَّةِ الرحم، وسبيل الخيرات، والمعنى لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء"¹.

تأمل الكنايتين تجد فيهما من روائع البيان ما لا يحيط به فكر إنسان، فيهما جمال في التعبير، وروعة في التصوير، وإيجاز وتأثير، وتنفير، ألا ترى أنّ التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخصلة المذمومة في صورة بغیضة منفرة؟ فهذه اليد التي غُلَّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتدّ، وهو بذلك يرسم صورة البخل الذي لا يستطيع يده أن تمتدّ بإنفاق ولا عطية، والتعبير ببسطها كلّ البسط يصور هذا المُبَدَّرُ بأنّه لا يبقى من ماله شيء كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء وهكذا استطاعت

¹ فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1401هـ-1981م، ج20، ص196.

الكناية أن تنقل المعنى الكنائي الذي لا يمكن تأديته وتصويره إلا بهذا التعبير، وأن هذا التعبير لا يصلح إلا بهذا المعنى¹.

وقد وردت في كتب البلاغة أمثلة عن الكناية كالذي حدث لعدي بن الحاتم الذي يتبين مدلول الآية الكريمة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة، 187] إذ عمد إلى عقّالين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، قال جعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: إن كان وسادك لعريضاً، فالوساد العريض كناية عن صفة الغباء وقلة الفهم، لأنه يلزم من عرض الوساد عرض القفا، ومن عرض القفا إلى البلادة وقلة الذكاء، إلا أن فهم ذلك منه يتوقف على إعمال فكر وروية لأن في اللزوم بين المعنيين نوع خفاء لا يدركه كل من يسمع أو يقرأ².

3- بلاغة التشبيه و التمثيل:

يقول عبد القاهر عن حقيقة التشبيه: " اعلم أن الشيين إذا شُبه أحدهما بالآخر، كان ذلك على ضربين، أحدهما، أن يكون من جهة أمر بَيِّن لا يحتاج إلى تأول، والآخر أن يكون الشبه محصلاً بضربٍ من التأول"³.

ويمضي عبد القاهر في تبين وتوضيح هذين القسمين مستمداً في سبيل توضيح ذلك نماذج كثيرة من الشعر، ولعلنا نوجز ذلك التقسيم في النقاط التالية:

3-1- التشبيه الذي لا يحتاج إلى تأويل: وهو عدة أنواع نذكر على سبيل المثال لا

الحصر:

¹ سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظرياً وتطبيقياً، دار الشروق، عمان، ط1، 2006م، ص84.

² الثعالبي، الكناية والتعريض، تح: عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، 1998م، ص27.

³ الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص90.

أ- تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل: نحو أن يشبّه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه، وبالحلقة في وجه آخر.

ب- التشبيه من جهة اللون: وهذا يتعلق بالألوان كتشبيه الخدود بالورد، والشعر باليل، والوجه بالنهار.

ج- التشبيه من جهة الهيئة: ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها، كتشبيه الذهاب على الاستقامة بالسهم السديد.

د- التشبيه من جهة الحواس: بمعنى كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس كتشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيره.

هـ- التشبيه من جهة الغريزة والطباع: كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة وبالذئب في المكر والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم.

وفي هذه الأنواع لا يحتاج التشبيه إلى تأول، ووجه الشبه يعرف بلا إعمال فكر فلا يخفى أن الخد يشبه الورد في الحمرة، وأن تشبيه الرجل بالأسد يكون في الشجاعة¹.

3-2- التشبيه الحاصل بالتأويل:

وهو التمثيل أو التشبيه التمثيلي وقد استطاع عبد القاهر بما أوتي من موهبة كبيرة وذوق رفيع وعلم واسع أن يفرق بين التشبيه والتمثيل ويضع حدوداً تفصل بين لون وآخر يقول عبد القاهر: "ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، ويعطي المقادّة طوعاً، حتى إنّه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء، وهو ما ذكرته لك ومنه ما يُحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجِه إلى فضل رؤيةٍ وأطف فكرة"².

3-2-1- أنواع التشبيه الحاصل بالتأويل:

إذن فالجرجاني يرى أن الضرب الثاني من التشبيه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

¹ الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص92.

² المرجع نفسه، ص93.

أ- ما يسهل الوصول إليه: ومثال هذا النوع لقولك (هذه حجة كالشمس في الظهور) إذ شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها، وهذا التشبيه ليس على درجة التشبيه الذي جاء به قولنا (الشعر كالليل) إذ أن هذا الأخير لا يحتاج إلى تأول أي إعمال فكر في توضيح المراد هو التشبيه أما الأول فإنه في حاجة إلى التأول وذلك بأن تقول: " حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجابٌ ونحوه، مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك إذا لم يكن بينك وبينه حجابٌ، ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب"¹.

ب- ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل كقولنا في صفة الكلام: ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة، ويريد عبد القاهر الجرجاني بذلك أن اللفظ لا يستغلق ولا يُشْتَبَّه معناه، ولا يصعب الوقوف عليه، وليس بغريب وحشي يستكره لكونه غير مألوف، أو ليس في حروفه تكريرٌ وتنافرٌ يُكْدُّ اللسانُ من أجلهما، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق، والنسيم الذي يسري في البدن، وفي المقارنة بين هذين النوعين يقول: " فهذا كله تأول ورد شيء إلى شيء بضرب من التلطف، وهو أدخل قليلاً في حقيقة التأول، وأقوى حالاً في الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس"².

ج- ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول: حتى لا يعرف المقصود من التشبيه ببديهة السماع، فنحو قول كعب الأشقري، وقد أوفده المهلب على الحجّاج، فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس، فسأله في آخر القصة قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم؟ قال: كانوا حُماة السرح نهاراً فإذا أُلِّوا ففرسان البيّات. قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرّفاها.

فهكذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرّفق به والنظر، ألا ترى أنّه لا يفهمه حقّ فهمه إلا من له ذهنٌ ونظرٌ يرتفع به عن طبقة العامّة؟ وليس كذلك تشبيه الحجة

¹ الجرجاني عبد القاهر ، أسرار البلاغة، ص93.

² المرجع نفسه، ص93.

بالشمس، فإنه كالمشترك البين الاشتراك، حتى يستوى في معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل، وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت، قد تجده في كلام العامي. فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله " هم كالحلقة "، فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة¹.

3-2-2- أنواع وجه الشبه العقلي التمثيلي الحاصل بالتأويل.

لقد تبين مما سبق أن أوجه الشبه في التمثيل أو التشبيه التمثيلي عند عبد القاهر " لا يكون حسيًا، ولا من الغرائز والطباع العقلية الحقيقية، ولكنه يكون عقليًا غير حقيقي أي غير متقرر في ذات الموصوف، فلا يكون بيّنًا في نفسه، بل يحتاج في تحصيله إلى تأول، لأنّ المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية².

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن وجه الشبه العقلي التمثيلي يتنوع إلى: مفرد، ومركب، ومتعدد

أ- **وجه الشبه عقلي تمثيلي مفرد:** وقد أشار إليه عبد القاهر بقوله: " ثم إنّ هذا الشبه العقلي، ربما انتزع من شيء واحد، كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل"³، فالوجه - كما ترى - مفرد عقلي تمثيلي، لانطباق شرط التمثيل عليه.

ب- **وجه الشبه عقلي تمثيلي مركب:** وقد وضحه بقوله: " وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثمّ يستخرج من مجموعها الشبه، فيكون سبيله سبيل الشئيين يمزج أحدهما بالآخر، حتى تحدث صورة غير ما كان لها في حال الأفراد، لا سبيل الشئيين يجمع بينهما وتحفظ صورتها⁴.

¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص 94.

² بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1377هـ-1958م، ص 250.

³ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص 101.

⁴ المرجع نفسه، ص 101.

وقد مثل عبد القاهر لهذا النوع من الشبه العقلي التمثيلي، بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة، 05] فالشبه مُنْتَزَعٌ من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يعمل حظ سوى أنه يتقل عليهن ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض¹، فوجه الشبه في الآية الكريمة حصل من انضمام ثلاثة أشياء نصَّ عليها عبد القاهر هي:

- أن روعي من الحمار فعل مخصوص وهي الحمل.
 - وأن روعي أن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً، وهي كتب العلم.
 - وأن روعي أن الحامل لها - وهو الحمار - جاهل بما فيها، وهذه الأمور لا يحصل الشبه بها بانفرادها بعضاً عن بعض، بل بانضمامها.
- كما أننا نجد أن عبد القاهر قد أسهب في حديثه عن التشبيه التمثيلي المركب، وتناوله من عدة جوانب قاصداً بذلك إيضاحه، والتفريق بين التمثيل المفرد والتمثيل المركب يقول عبد القاهر " اعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف، لم يخل من وجهين:
- أحدهما: أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه.
- والآخر: أن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه"².

وقد مثل عبد القاهر للتمثيل المركب بأمثلة عديدة، منها قولهم " هو كالقابض على الماء " و " الرأقم في الماء " فالشبه في هذا القول منتزع مما بين القبض والماء والرقم، وليس بمنتزع من القبض نفسه.

وكذلك قولهم " مازال يفتل منه في الذروة والغارب " يقولونه في تشبيه حسن احتيال الإنسان ليصل إلى ما يريد من بخيل يتأبى عليه البذل والعطاء فالشبه في هذا القول قد

¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة ص101.

² المرجع نفسه، ص104.

انتزع مما بين الفتل وما تعدى إليه من الذروة والغارب لأنه لا يوجد في الفتل من حيث هو فتل، وإنما يوجد في الفتل إذا وقع في الشعر من ذروة البعير وغاربه¹.

وخلاصة القول هنا أن وجه الشبه في التشبيه التمثيلي المركب قد ينتزع مما بين الفعل والجار والمجرور، أو مما بين الفعل ومفعوليه، كما قد ينتزع مما بين الحال وصاحبها كما في الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة، 05] حيث انتزع الوجه مما بين الحمار والجملة الحالية "يحمل أسفارًا" ومن قولهم " كالحادي ليس له بعير حيث انتزع الوجه مما بين الحادي والجملة الحالية " وليس له بعير"².

وهذه الأمثلة كلها قد انتزع فيها وجه الشبه من جملة واحدة، وقد ينتزع التشبيه التمثيلي من جملتين أو أكثر وحينئذ يكون أدخل في باب التمثيل من غيره وقد بين عبد القاهر رأيه في المسألة، وجلاها بقوله: " وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي، والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً، لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر³.

حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر، ألا ترى إلى نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس، 24] كيف كثرت الجمل فيه؟ حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها، من غير أن

¹ عبد الفتاح فيود، دراسات بلاغية، دار المعلم الثقافية، القاهرة، ط1، 1989، ص166.

² المرجع نفسه، ص167-168.

³ لجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص108.

يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنَّك لو حذفنا منها جملة واحدة من أي موضع كان أدخل ذلك بالمغزى من التشبيه¹.

ج- وجه شبه عقلي تمثيلي متعدد: وقد مثل عبد القاهر لهذا النوع فقال هو يصفو ويكدر"، وبمُرُّ ويحلو، ويسرج ويُلجَم، لأنَّك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين، فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى، لأنَّك لو قلت هو يصفو، ولم تتعرض لذكر الكدر، أو قلت يحلو، ولم يسبق ذكر يمر، وجدت المعنى في تشبيهك له بالماء في الصفاء وبالعسل في الحلاوة بحاله وعلى حقيقته، وليس كذلك الأمر في الآية.

وقد ذكر عبد القاهر الفرق بين الآية السابقة وهذا المثال، وهو أنَّ المثال يصح فيه الاكتفاء بأحد الوصفين، فإذا قلت فلان يصفو، أو يحلو، فقد وقع تمثيلك صحيحاً، إذ لا ينكر تشبيه الرجل بالماء في الصفاء، أو بالعسل في الحلاوة ولا يصح ذلك في الآية، لأنَّه يشترك فيها أن يكون الحامل حماراً، وأن يكون المحمول كتب علم، وأن يقترن بهذين جهل الحمار بمضمون ما حمل.

وخلاصة القول هُنا أنَّك في التمثيل أو التشبيه المتعدد، يصح الاكتفاء بأحد الوصفين وفي التمثيل أو التشبيه المركب لا يصح.

¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص 109.

خلاصة.

بعد هذه المقاربة المتواضعة من دراسة أهم كتب الإمام عبد القاهر الجرجاني في مسائل الإعجاز اللغوي القرآني لا يمكننا القول أنّ الموضوع نال حقه كاملاً، لأنّ عبد القاهر ذو علم واسع، وخيال ملهم وأسلوب دقيق، ولأنّ علمه يركز على أسس قراءات عميقة للموروث العربي. غير أنّه يمكننا أن نُجمل أهم نقاط هذا الفصل في ما يلي:

- إنّ قضية الإعجاز القرآني كان لها أثرها البالغ في إثارة الجدّل الواسع بين المتكلمين على اختلاف مشاربهم، فأفاد منها اللغويون والبلاغيون والمفسرون.

- الجرجاني لا يفصل بين النحو والبلاغة، بل يجعل النحو في خدمة البلاغة، ويؤكد أنّ اللغة العربية لا ينفصل فيها المعنى عن المبنى، وأنّ المزية في تخير التركيب المناسب للمقام والحال.

- إنّ دراسة الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني، أثبتت أنّ سبب إعجاز النص القرآني يكمن في نظمه وطريقة بنائه وفي تركيبه وبلاغته وبيانه.

- تُنظّم عناصر النص القرآني في جمل وآيات تتخللها ظواهر لغوية تركيبية مثل: التقديم والتأخير، الذكر والحذف، الفصل والوصل، مما زاد في جماله وفنائه وإعجازه، فتقديم الفعل أو الاسم خاصة في مسائل الاستفهام والخبر المثبت يخضع للغرض العام لموضوع الخطاب والسياق الذي ورد فيه، ومعنى حرف الواو يكون للاشتراك المطلق بين المعطوف والمعطوف عليه وهذا المعنى لا يحسن في جميع المواضع وقد يوجد معنى العطف رغم ترك حرف العطف وهذا يُبيّن لنا عظمة النص القرآني وإعجازه الذي لا يؤتى لبشر مما يدحض فكرة التشكيك في إعجازه ونسبته إلى الله تعالى.

- أسهمت الآليات البيانية: الاستعارة والكناية والتشبيه والتمثيل في بلورة جمالية النص

القرآني و إعجازه مما يثير شغف المتلقي وتدوقه الفني واقتناعه بالفحوى والمضمون.

الفصل الثالث:

قضايا الإعجاز اللغوي القرآني

عند مصطفى صادق الرافعي.

تمهيد.

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة الرافعي.

ثانياً: حقيقة الإعجاز عند الرافعي.

ثالثاً: الإعجاز اللغوي القرآني عند الرافعي.

رابعاً: مقارنة بين الجرجاني والرافعي من حيث الإعجاز اللغوي القرآني.

خلاصة الفصل.

تمهيد:

لم تكن اللُّغة يوماً محض مفردات وأصوات وتراكيب، بل اللُّغة تاريخ وهوية وحضارة وثقافة شعب، وعندما ترتبط بأهم مصدر في تشريع الأُمَّة فإنَّه يصبح واجباً على شعبها أن يحمل على عاتقه مهمَّة الدِّفاع عنها أمام من يحاولون التَّحامل عليها والمساس بها تطاولاً وجهلاً منهم بأسرارها، وممَّا يصبُّ في هذا الباب ذاك الرِّخم المعرفي الذي شهدته العربية منذ نهاية القرن الثاني للهجرة وبداية القرن الثالث، فبرز لها رجال يصدُّون عنها الهجمات ويحفظونها من التَّحريف، كلُّ حسب مجاله، من بلاغيين ونحويين و حتى علماء القراءات القرآنية وغيرهم، ويعتبر الإعجاز القرآني وخاصَّة الإعجاز اللغوي، من أهمِّ العلوم التي حاولت أُمَّة العربيَّة من خلالها إثبات قيمة ومكانة لغتهم وإثبات أحقيَّة القرآن بوسم الإعجاز، وقد عرضنا في الفصل الثاني من هذا البحث أحد أبرز هذه الجهود، من خلال الخوض في أهم آراء إمام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) في الإعجاز اللغوي، وها نحن نحاول في هذا الفصل أن نعرض آراء أحد أعلام الإعجاز في العصر الحديث، وهو الأديب (مصطفى صادق الرافعي).

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة الرافعي.

1- اسمه ونسبه ومولده ووفاته:

هو أبو السامي مصطفى صادق بن الشيخ عبد الرزاق الرافعي الفاروقي العُمري الطرابلسي...¹ سوري الأصل أباً وأماً، مصري المولد، ولد ببهتيم وهي من قرى محافظة القليوبية²، في أول رجب سنة 1298هـ الموافق لمنتصف كانون الثاني (يناير) 1881م³، وتوفي فجر الاثنين العاشر من مايو عام 1937م⁴.

2- تعليمه وثقافته:

حظَّ الرافعي من الشهادات والدراسة النظامية لم يتجاوز الشهادة الابتدائية، التي نالها بامتياز، وانقطع بعدها لعلَّة صار بسببها أصماً لَمَّا أتمَّ الثلاثين...ومن أساتذته في المدرسة الابتدائية العلامَّة (مهدي خليل)، المفتش بوزارة المعارف...و قد نشأ قبلها على تعاليم الدين على يد والده وحفظ شيئاً من القرآن ووعى من أخبار السلف...هذا ما جعل ثقافته دينية ومزاجه أقرب إلى مزاج الأدباء المطلعين على التراث العربي دون غيره، وأعان على ذلك قراءته الباكرة في ما تضمنته مكتبة والده من كتب دينية في الأغلب الأعم...وانصرافه إلى التراث الأدبي العربي قراءة وتفكُّراً وحفظاً(من ذلك استظهاره كتاب نهج البلاغة أثناء أحد رحلاته)...أمَّا اللغة الفرنسية فقد لزمها بعد أن انتهى من المدرسة يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة ثم هجرها إلى غير لقاء...⁵.

¹ مصطفى نعمان حسين البدرى، الإمام مصطفى صادق الرافعي، مطبعة دار البصري، (د ط)، (د ت)، بغداد، ص209.

² كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، مصر، (د ط)، 1968م، ص6.

³ مصطفى نعمان حسين البدرى، الإمام مصطفى صادق الرافعي، ص210.

⁴ محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، الشركة الشرقية الكبرى للنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1955م، ص28. ص341.

⁵ مصطفى نعمان حسين البدرى، الإمام مصطفى صادق الرافعي، ص242.

3- وظيفته:

عُيِّن عام 1899م كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ونقل منها إلى محكمة إيتاي البارود ثم إلى محكمة طنطا الشرعية، ثم نُقل إلى المحكمة الأهلية في طنطا وبقي فيها إلى أن توفاه الله¹.

4- اهتماماته الأدبية:

اهتمَّ الرافعي بالشعر والقصّ والنقد والكتابة بصفة عامّة كما يلي:

4-1- الشُّعر: بدأ الرافعي حياته الأدبية شاعراً... يتطلع إلى منزلة بين شعراء عصره (البارودي وحافظ إبراهيم...)، ظلَّ ينشر الشعر في المجلّات (الضياء، الثريا، المقتطف، البيان...) أو يُطلع عليه بعض أصدقائه...²

أصدر سنة 1903م ديوانه منافسةً لديوان حافظ (الذي أثار الإعجاب بمقدّمته)، فبلغ بجودته أن شكَّ الشيخ إبراهيم اليازجي أن يكون كاتبه من ذلك العصر...³

لا ينماز شعره الأول عن شعر التقليديين بشيء... يقول في كماليات الأخلاق:

لِكُلِّ فَنٍّ فِي الدُّنْيَا كَمَالٌ فَمَا نَقُصَّ الوَرَى إِلَّا الفِعَالُ

وَمَنْ لَمْ يُرْشِدُوهُ فِي صِبَاهُ تَحَكَّمَ فِي شَبِيبَتِهِ الضَّلَالُ

فَمَا قَلْبُ الصَّغِيرِ سِوَى كِتَابٍ تُسَطَّرُ فِي صَحَائِفِهِ الخِلَالُ⁴

...وقد حقق المُعاصرة في بعض شعره من ناحية الموضوع...، فله قصائد في الحياة

اليومية التي أغفلها الشعراء التقليديون... من شعره الغزلي:

كِتَابُهَا قَدْ جَاعَنِي حَامِلًا لِقَلْبِي الخَفَاقِ قَلْبًا خَفَقَ

والتَّمَعْتُ فِيهِ نُجُومَ المُنَى فِي أسْطُرٍ مِثْلَ سَوَادِ العَسَقِ⁵

¹ مصطفى نعمان حسين البدرى، الإمام مصطفى صادق الرافعي، ص34.

² كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، ص114.

³ المرجع نفسه، ص115.

⁴ المرجع نفسه، ص116.

⁵ المرجع نفسه، ص120.

يفرض الرافعي نفسه على تاريخ الشعر بأناشيده الوطنية... وهو النوع الذي كان ملتفتا له طوال حياته... ومنه قصيدته بعنوان " الوطن " في ديوانه الصادر سنة 1903م... ونشيده المعروف:

إِلَى الْعُلَا إِلَى الْعُلَا بَنِي الْوَطَنِ إِلَى الْعُلَا كُلُّ فَتَاةٍ وَفَتَى¹

4-2- القصة: كان يفهم القصة بمعنى "الحكاية"، فهو يحكي ويستطرد إلى موضوعات لا تَمُتُ بصلّة إلى موضوع الحكاية، ويرجع ثانية دون أن يمتطح حكايته منطقة فنية، ودون رعاية لشروط معينة معروفة... بالمعنى المتعارف عليه عند الأدباء.²

4-3- الكتابة: ساعدت قراءة الرافعي في الكتب القديمة على أن يكون أدبه أميل إلى روح التراث في وسائل صياغته وطريقة تعبيره وزخارفه البيانية... يقول عنه صديقه وتلميذه "سعيد العريان" تقرأ له فتحسبه رجلا من التاريخ قد فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقري ليعيش في هذا العصر، ويصل حياة جديدة بحياة كان يحيها منذ ألف سنة...³

4-4- النّقد: أغلب ما كتبه في النقد... أدخل في باب المعارك القلمية منها في باب النقد العلمي... أوفى ما يمكن ذكره لنقد الرافعي ما كتبه في كتابه "على السفود" نقداً للعقاد... وقد حشد فيه كلّ خبراته النقدية... وهي لا تخرج عن خبرات الناقد العربي القديم مفهوماً وشكلاً...⁴

5- آثاره

كان الرافعي أديبا ثريا الإنتاج، وهذه مؤلفاته مرتبة حسب تاريخ كتابتها:

- ديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء) صدرت بين سنتي 1903 و1906م⁵.

- ديوان النظرات، صدر عام 1908.

¹ كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، ص 124.

² المرجع نفسه، ص 109.

³ المرجع نفسه، ص 84.

⁴ المرجع نفسه، ص 126.

⁵ المرجع نفسه، ص 62.

- ملكة الإنشاء، أعدّه للنشر عام 1907م، لكنّه لم ينشر، كتاب يحتوي على نماذج إنشائية، غرضها تعليم الشباب أسلوب التعبير الجيّد...
- تاريخ آداب العرب (الجزء الأول) صدر عام 1911م، ثمّ الجزء الثاني (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) طُبِع ثلاث مرّات، آخرها سنة 1926م، أمّا الجزء الثالث (أسرار الإعجاز) ففيه فصول تمّ تأليفها ولم يُطبع.
- حديث القمر، كتبه بعد رحلته إلى لبنان عام 1912م.
- المساكين، كتبه عام 1917م.
- نشيد سعد باشا زغلول، كتيب عن نشيده "أسلمي يا مصر" الذي أهداه إلى سعد زغلول عام 1923م.
- النشيد الوطني المصري "إلى العُلا"¹.
- رسائل الأحران، كتبه عام 1924م.
- السحاب الأحمر
- المعركة، تحت راية القرآن، صدر عام 1926م.
- على السفود، نشرته مجلة العصور ولم تكتب اسم الرافعي عليه، اكتفت بالقول بأنه لإمام من أئمة الأدب العربي.
- أوراق الورد، تكملة لرسائل الأحران والسحاب الأحمر.
- وحي القلم في جزئين مطبوعين (مجموعة من مقالاته بين سنتي 1934 و1937م، أمّا الجزء الثالث (ديوان أغاني الشعب) و الجزء الأخير من ديوانه يجمع فيه القصائد التي قيلت بين سنتي 1908 و 1937م فلم يطبعاً².

¹ كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، ص 62.

² المرجع نفسه، ص 63.

ثانيا: حقيقة الإعجاز عند الرافي.

بعد أن كان لنا فرصة قراءة واستكشاف كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) والذي يُعتبر مدونة الرافي الوحيدة في الإعجاز القرآني، وجدنا أنه لا يتَّجه مباشرة إلى الحديث عن الإعجاز اللغوي، فهو يعرض لموضوعات تتعلّق بالقرآن عامّة، كتاريخه وجمعه وتدوينه وآدابه وغيرها، كما أنه يفتتح حديثه عن الإعجاز اللغوي، ببيان ماهية الإعجاز عنده. وقد رأينا أنه من الواجب علينا كباحثين أن نعرض بإيجاز أبرز هذه المواضيع، قبل أن نخوض فيما جاء بحثنا بصدده؛ لأنّ هذه العناوين التي صدر بها كتابه لم تكن عبثاً، بل قد اتكأ عليها للوصول إلى المراد واستحضرها خدمة لموضوع الإعجاز اللغوي... وليثبت أحقية القرآن بوسم الإعجاز¹.

1- تعريف الإعجاز عند الرافي:

يعرّف الرافي مصطلح (الإعجاز) فيجعل مرده إلى شيئين:

- " ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته.

- استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدّمه؛ فكأنّ العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت...².

وهو بذلك يقول بأنّ "المعجزة لا تكون معجزة حتى تعجز قدرة الناس كلّهم عنها جيلا بعد جيل...مع بقائها هكذا تتحدى قدرة النَّاس أبد الدهر"³.

¹ عزوز ياسين وقلايلية العربي، جهود مصطفى صادق الرافي في بيان الإعجاز القرآني، مجلّة (لغة-كلام) مخبر اللّغة والتواصل المركز الجامعي، غليزان/الجزائر، مج6، العدد02، 2022م، ص130.

² الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص117.

³ عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص329.

وهذا شرط متحقق في القرآن، فهو "أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة؛ وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع"¹.

لقد ثبت أن من شروط المعجزة أن يوجد فيها ما يدعو للتّحدي، والذي "كان عند العرب مفهوما مستغرقا للمنازعات الشعريّة والأدبية في أسواق العرب، عكاز وغيره"².

وهو شرط متوافر كذلك في القرآن، وذلك لأنّه نزل بدايةً في تلك الفترة التي بلغ فيها العرب "مبلغهم من تهذيب اللّغة ومن دقّة الحسّ البياني، حتّى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قبيلًا واحدًا باجتماعهم على بلاغة الكلمة وفصاحة المنطق"³، إذ لا يكون التّحدي إلاّ إذا كان فيما عرفه القوم وبرعوا فيه.

أمّا السبيل إلى امتلاك زمام التّحدي والاستيلاء عليه، فكان على القرآن أن يكون أقوى من العرب فيما هم أقوىاء به، فجاءهم "أفصح كلامٍ وأبلغه لفظًا وأسلوبًا ومعنى، ليجد السبيل إلى الوحدة العربية التي كانت معقودة بالألسنة يومئذٍ..."⁴، حتّى أحسوا أمامه بالعجز والضعف، "فإنّ كلّ آيةٍ يسمعونها كانت تصيبهم بالشّلل الاجتماعي، وتخذلهم في أنفسهم، فلا يحسّون منها إلاّ تراجع الطّبع وفتور العزيمة"⁵.

أمّا التّحدي الصّريح والصّارخ من خلال آيات القرآن وطلب المعارضة، والذي كان من عاداتهم في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، فإنّ الحكمة منه أن "يشهد التاريخ في كلّ عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدّ والفصحاء اللّسن..."⁶.

¹ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص131.

² بن نعوم سعاد، أسس الإعجاز القرآني عند مصطفى صادق الراجعي والدراسات القرآنية، جامعة وهران، أحمد بن بلة، 2016/2015م، ص336.

³ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص138 و139.

⁴ المرجع نفسه، ص139.

⁵ المرجع نفسه، ص140.

⁶ المرجع نفسه، ص143.

أمّا المعارضة فبالرغم من أنّ العرب أدركوا في قرارة أنفسهم أنّهم غير قادرين عليها إلا أنّهم كانوا أشدّ الخلق أنفةً وأكثرهم مفاخرة والكلام سيّد عملهم، فدعاهم ذلك إلى زعم المعارضة، إذ أنّ التاريخ لا يخلو من أسماء قومٍ قد زعموا أنّهم عارضوا القرآن، فمنهم من ادّعى النبوة... ومنهم من تعاطى المعارضة صناعةً...¹، وقد سرد الراجعي أسماءهم وأوصافهم في المعارضة منهم: مسيلمة الكذاب، عبهلة بن كعب (الأسود العنسي)، طليحة بن خويلد الأسدي، سجاح بنت الحارث، النضر بن الحارث، وغيرهم ممّن نُسبت إليهم المعارضة افتراءً²، ثمّ انتهى من كلّ ذلك إلى أنّ هذه الافتراءات والادّعاءات ليست إلاّ دليلاً آخر على عجزهم.

2- وجوه الإعجاز غير اللغوي عند الراجعي

لم يجعل الراجعي حديثه عن الإعجاز محصوراً في وجه واحد، بل كان حديثه عامّاً، فهو يرى أنّ " البحث في حقيقة الإعجاز ينبغي ألاّ ينحصر في وجه بعينه، أو يردّ إلى ناحية خاصّة مثلما فعل من سبقه، كان يحصره (النظام) في الصّرفة، و(الزمان) في الفصاحة... بل يجب النظر إليه من جوانب كثيرة..."³، منها ما يتعلّق بتاريخ القرآن وشرائعه، وذلك على النحو التالي:

2-1- تاريخ القرآن

إنّ الحديث عن تاريخ القرآن يعني بالضرورة الحديث عن كيفية نزوله، وهو ما ذهب إليه الراجعي مُبيناً عن وجه الإعجاز هنا وعن الحكمة من نزول القرآن منجّماً (متفرّقاً) في بضع و عشرين سنة، غير مُكتفٍ بإيراد ما هو معروف عند العلماء، من أنّ ذلك كلّهُ كان لتثبيت قلب النّبي ﷺ من شدّة ما كان يلقاه من زلازل الوحي، مُضيفاً: "...ثمّ ليكون ذلك أشدّ على العرب وأبلغ الحُجّة عليهم وأظهر لوجه إعجازه... ولولا نزوله متفرّقاً: آية واحدة

¹ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص144.

² ينظر: المرجع نفسه، ص 145-155.

³ عز الدّين بوبيش، حقيقة الإعجاز عند الراجعي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ص78.

إلى آيات قليلة، ما أفحمهم الدليل في تحديهم بأقصر سورة منه، إذ لو أنزل جملة واحدة كما سألوا لكان لهم في ذلك وجه من العذر... يُنفس عليهم أمر الإعجاز...¹، فقد كان يُنبت عجزهم مع كل آية وكل سورة تنزل وبخاصة القصار منها، والتي نزلت في بداية الوحي. تطرّق بعد ذلك لحكمة أخرى وهي "استدراج العرب وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيته على حسب النوازل وكفاء الحادثات...²"، أي إنّ في نزول السور مناسبة لحادثة ما فتكون بذلك ردّاً عن شبهة أو تساؤل، أو بيانا لحكم ما (أمرا أو نهياً...) تهذيباً وتربيةً لنفوس العرب .

أمّا الجزء الثاني من تاريخ القرآن (جمعه وتدوينه) بداية مما كان يكتبه بعض الصحابة من أنفسهم أو بأمر من النبي ﷺ فيخطونه على ما اتفق لهم من العُصب والكرانيف واللّخاف وحتى المصاحف العثمانية التي جمعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم استقصاءً لما كُتب واستيعاباً لما في الصدور...³، فقد سردّها رادّاً بذلك عن ما مسّ القرآن من افتراءات من أنّه قد سقط منه شيء أثناء جمعه وما إلى ذلك.

وذهب (فضل حسن عباس) إلى أنّ الذي أراده الرافعي من هذا السرد هو بيان كون القرآن مُعجزاً "من حيث تاريخه بين الكتب السماوية فهو كتاب محفوظ ولم يطرأ عليه تحريف ولا تبديل"⁴، ببيان ما كان من حرص الصحابة والتابعين على جمع كل ما كان من القرآن بعد كثير من التمحيص وإجماع ممّن يوثق بشهادتهم وروايتهم.

وذهب (عبد الكريم الخطيب) إلى أنّ الرافعي أراد القول بأن "نزول القرآن في تلك الفترة من حياة الأمة العربية، والتي بلغ فيها شأن اللّغة عندهم غايته ووصل أثر الكلمة في

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص30.

² المرجع نفسه، ص31.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص31-39.

⁴ فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص131.

النفس الإنسانية مداه... فكان مجيء القرآن في هذه الفترة بالذات، وعلى هؤلاء القوم بأعيانهم هو وجه من وجوه الإعجاز"¹.

2-2- آداب القرآن:

سطر الراجعي تحت عنوان (آداب القرآن) مقالا يسرد فيه مجموعة من الحجج والأدلة على أن ما يحمله القرآن الكريم بين دفتيه من تشريعات، أخلاق، وآداب تمثل في مجملها الحدود والآداب التي يجب على الإنسان أن يتّصف بها وينزع منزعا كي تحفظ له إنسانيته، " فجعل الأخلاق القرآنية والمسائل التشريعية والتربية السلوكية إحدى وجوه إعجاز القرآن"²,

تحت مسمى (الإعجاز الادبي) أمّا حججه في ذلك فتمثّل في:

- ما أثبتته علوم الاجتماع والفلسفة من أسبقية القرآن في فهم النفس البشرية، بل وعدم قدرتها عن الوصول إلى هذه الدرجة من الفهم، وذلك لقصورها "عن استبطان حقائق الفطرة الإنسانية... وتمثّل مذهبها النفسية... لحملها على العقل دون الخلق، واعتمادها على جملة الفائدة دون الطريقة التي تنتهي إلى الفائدة..."³.

- أمّا قوله بأن ما ينصّ عليه القرآن من تشريعات وآداب إنسانية، هو السبيل إلى الرقي بالنفس البشرية، فإنّه ليس من دليل في التاريخ على أن هذه الأرض شهدت من خلق الله جيلا اجتماعيا كذلك الجيل الأول في صدور الإسلام، حين كان القرآن غضّا طريا... وكانت النفوس مستجيبة، على أنه جيل ناقص طباعه، وخالف عاداته، وخرج مما ألف، وخلق على الكبر خلقا جديدا... فبالرغم مما كانت عليه طباع العرب من غلظة وفضاظة ومما كان مآته الجهل إذ كانوا بين داع للصنم وراع للغنم وعالم على وهم وجاهل على فهم، وبين شيطان كأنه لخبثه مادة لوجود الشيطان، وإنسان كأنه لشره آلة لفناء الإنسان... إلا أن آداب القرآن وأخلاقه جعلت منهم جيلا ليس كمثل في علو النفس، وصفاء

¹ عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص 331.

² محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الراجعي، فارس القلم تحت راية القرآن، دار القلم دمشق، ط1، 1999م، ص97.

³ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص83.

الطبع، ورقة الجانب، وبسط الجناح... وانطواء الضمير على أظهر ما عساه أن يكون في الإنسان من طهارة الخلق... وذلك ما لم تقدر عليه العلوم جميعاً¹.

- لما كان القرآن الكريم كتاب الإنسانية كلّها الذي خاطب الله تعالى به جميع البشر، بدليل قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، 1]، وليس مقيداً بزمان معين ولا بأمة معينة، كان هذا حال آدابه في كونها مؤاتية للفطرة الإنسانية في إطلاقها وعمومها وفي " أنّها غير ملحوظ فيها أوصاف دولة بعينها أو أمة بأوصافها أو نحو ذلك من ضروب الحد والتعيين؛ فليس فيها من روح الزمن إلا الزمن كله، بحيث لا يتأتى للفيلسوف ولا المؤرخ أن يردّها... في جملتها إلى عصر بعينه...²، وهذا ما يميزها ويجعل لها الأفضلية عمّا تفرضه الأمة على أفرادها من شرائع وعادات تريد لهم من خلالها " أن يكونوا أبداً مع الحال التي تتفق بها مصلحة على وجه أمرها وإن كان في ذلك المفسدة... وكان فيه كلّ ظلم للإنسانية... وإصرار على الباطل... غير أنّ الآداب تحتم على الفرد أن يكون أبداً مع الحق... إذ الحقّ في اعتبار الآداب ما فيه مصلحة الإنسانية...³.

وقد كان مأتى هذا العموم ما انفرد به القرآن - من أسلوب - في وصف الآداب التي تلائم الفطرة في مختلف أزمانها بحيث "لا يقرّر الأخلاق تقريراً وضعياً على أسلوب الكتب والمصنفات، فيضعها على أنّ لها قواعد وضوابط...⁴، فإنها بذلك ستتعرض في كل عصر لنوع من التغيير بما يناسب اختلاف ذلك العصر؛ لذلك كانت " المعجزة في هذه الآداب الكريمة أنها تقرر الأخلاق تقريراً عاماً، فيصفها على أنها هي القواعد لغيرها والضابط لما يبتنى عليها، ويوردها في أحسن الحديث، ويعترض بها وجوه القصص، ويقلبها مع أغراض الكلام، ثم لا يكون في ذلك وجه من الخلاف بينها وبين الفطرة الإنسانية...⁵، وذلك ما

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 82.

² المرجع نفسه، ص 93.

³ المرجع نفسه، ص 80.

⁴ المرجع نفسه، ص 93.

⁵ المرجع نفسه، ص 93.

يعرف بالأساليب التربوية والتي استمدتها علوم التربية من القرآن الكريم لما لها من فاعلية في التأثير على الفرد وبناء شخصيته وتقويم سلوكه.

ثالثاً: الإعجاز اللغوي عند الرافعي.

حاولنا في فصل متقدّم عرض مواطن إعجاز لغة القرآن من منظور (عبد القاهر الجرجاني)، الذي نظر إليها من خلال مباحث علمي النحو والبلاغة، وها هو (الرافعي) ينحو منحىً مختلفاً عنه، لكنّه ليس بالجديد، فقد سبق إليه البلاغيون القدماء من خلال بعض الإشارات فيما عقده في مؤلّفاتهم حول البلاغة والفصاحة وما يدور حولهما، أمثال ابن سنان الخفاجي، وابن الأثير، وأبو عيسى الرماني وغيرهم، وسنقوم بعرض ما يتقاطع من هاته الإشارات مع ما ذهب إليه الرافعي.

من المعلوم أنّ أوّل وأكثر ما نزل من القرآن هو بلغة قريش (أفصح قبائل العرب)، وقد قام الرافعي بالحديث عن الحكمة من ذلك، تمهيداً للحديث عن الإعجاز اللغوي، وانتهى إلى أنّ ذلك كان لحكمتين:

أولاهما: أنّ رسول الله ﷺ قريشي، فمن البديهي أن يكون القرآن بالّلغة التي ألف الكلام بها، ثمّ لتصلح للعرب المقابلة بين القرآن وأساليبه وبين ما يأترونه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم¹.

وثانيهما: هي غاية "جعل القرآن ممكّن الفهم والقبول من جميع قبائل العرب على اختلاف لهجاتها، وتنوع لغاتها، بل ومعجزاً لهم جميعاً؛ لأن لغة قريش هي غاية الفصاحة عندهم، ومنتهى البلاغة لديهم..."²، وليجتمع له العرب كما اجتمعوا بقريش "لما استمازت به من جوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام..."³، إضافة إلى أنّ نزول القرآن بلغات (لهجات) أخرى غير لغة قريش، كان من أجل أن يتيسّر للعرب جميعاً قراءة القرآن بلحونهم وإن اختلفت وتناقضت⁴.

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص54.

² عزوز ياسين وقليلية العربي، جهود مصطفى صادق الرافعي في بيان الإعجاز القرآني، ص132.

³ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص54.

⁴ المرجع نفسه، ص56.

ثمّ وجدنا أنّ حديث الّرافعي عن الإعجاز اللغوي على قسمين: الإعجاز الأسلوبي والإعجاز الصّوتي.

1- الإعجاز الأسلوبي

إنّ كون القرآن بلغة (قريش) يعني أنّ ألفاظه هي ألفاظهم، وتراكيبه هي تراكيبهم، ولما كان الأسلوب "غير المفردات والتراكيب، وإتّما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه... وأسلوب القرآن هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه"¹، وهو الكيفية المعجزة التي خرجت بها ألفاظ تلك اللّغات بحيث تُنبئ عن الذات الإلهية وراءها، فقد بسط الرافعي القول في خصائصه المعجزة وهي:

1-1- التكرار

التكرار ظاهرة أسلوبية، خصّها الكثيرون بالدراسة من القدماء ومن المحدثين، وهو أنواع: تكرار اللفظ المفرد، الحرف، الجملة، تكرار اللفظ والمعنى، تكرار المعنى دون اللفظ، ومنه (المفيد) وهو الذي يأتي لمعنى ويشمل كل ما في القرآن لقول (ابن تيمية): "ليس في القرآن تكرار محض، بل لا بد من فوائد في كل خطاب"²، وقول (ابن الأثير): "...فاعلم أنه ليس في القرآن مُكرّر لا فائدة في تكريره، فمتى رأيت شيئاً منه تكرّر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه فانظر إلى سوابقه ولواحقه، لتتكشف لك الفائدة"³، وضرب لذلك أمثلة كثيرة، منها قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون واعظاً قومه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر، 38-39] فأشار إلى أنّ الفائدة في تكرار النداء (يا قوم) هي زيادة التنبيه لهم والإيقاظ من سنة الغفلة، وأنهم قومه وعشيرته، وهم فيها يوبقهم من الضلال، وهو يعلم وجه

¹ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج2، ص303.

² أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، مجّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 2004م، مجلد:14، ص408.

³ ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، القسم الثالث، ص8.

خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم، ويتلطف بهم... فإن سرورهم سروره وغمهم غمه¹.

وأشار (ابن عاشور) إلى أهمية تكرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر، 32] بأنه " الحث على التدبر بالقرآن لأن التدبر فيه يأتي بتجنب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء"²، وتتويها بشأن القرآن لما فيه من هدى وإرشاد.

والتكرار الذي لا فائدة منه (غير المفيد) فهو كثير في كلام العرب، مثال ذلك ما استشهد به ابن الأثير من قول مروان الأصغر:

سَقَى اللهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدٍ وَيَا حَبْدًا نَجْدٌ عَلَى النَّأْيِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَعْدًا دُونَهَا لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدٍ³

ثم علق على تكرار لفظة (نجد) في البيتين ست مرات بقوله: " أما البيت الأول فيحمل على الجائز من التكرير، لأنه مقام شوق وحزن ووجد بفراق نجد... على أنه كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معا من غير أن يأتي بهذا التكرار المتتابع ست مرات"⁴.

أما الرافعي فقد كان حديثه عن التكرار يدور حول نوع واحد هو تكرار المعنى في مواضع مختلفة من القرآن دون تكرار اللفظ " وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة... أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة... والتذكير بالنعمة... وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم: للتهويل والتوكيد، والتخويف والتفجع وما يجري مجراها... وبالرغم مما ألفه العرب من صورته في كلامهم إلا أن وروده في القرآن أعجزهم لأن المعنى الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة، وهم على ذلك عاجزون

¹ ابن الأثير، المثل السائر، القسم الثالث، ص 19.

² الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتوير، ج 27، ص 203.

³ ابن الأثير، المثل السائر، القسم الثالث، ص 23.

⁴ المرجع نفسه، ص 24.

عن الصورة الواحدة¹، أي أنّ القرآن يكرّر معانٍ معيّنة في مواضع مختلفة منه، ويعبّر عنها في كلّ موضع بألفاظ وتراكيب مختلفة.

وهو المعنى الذي أشار إليه (الزرقاني) تحت مسمّى (البراعة في تصريف القول) في قوله: "براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنّه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء..."²، ومن ذلك:

آياتٌ أخبر بها القرآن عن عِظَمِ جزاء الصّابرين، مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد، 22]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف، 90]، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود، 11]، وقوله: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل، 96].

وآياتٌ تصف امتناع إبليس عن السجود لسيدنا آدم عليه السلام، مثل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة، 34]، وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف، 11]، وقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾ [الإسراء، 61].

وآياتٌ تصف تكليم الله لسيدنا موسى عليه السلام، مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات، 15-17]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل، 8-9]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه، 11-12].

¹ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 160.

² الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ص 318.

1-2- تغيير أسلوب القرآن بين مخاطبة العرب ومخاطبة اليهود

أشار الرافي إلى أن أسلوب القرآن يتغير في مخاطبته لليهود بحيث يصبح كأنه يباليغ في إفهامهم من خلال توسعه في تصوير المعاني وتلوينها بالألفاظ... ونوع من البسط والشرح والتكرار¹، وأن أول من نبّه إليه (الجاحظ) في كتاب (الحيوان) إذ قال: "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب، والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام"².

ثم أوضح الحكمة من ذلك والتي يرى أنها قد غابت عن العرب وهي أن ما جرى عليه القرآن في خطابه لليهود (من البسط والشرح) ما هو إلا سرّ من أسرار الأدب العبراني... إذ كان أبلغ البلاغة في الشعر العبراني القديم أن تجتمع له: رشاقة العبارة، وحسن المعرض، ووضوح اللفظ، وفصاحة التركيب، وإبانة المعنى، وتكرار الكلام لكل ما يفيد التكرار وتوكيدا ومبالغة وإبانة وتحقيقا ونحوها...³، فكما جاء القرآن بلغة العرب وخاطبهم بما كان من أساليبهم البيانية فأعجزهم بها، فقد خاطب اليهود بأساليبهم في أدبهم وشعرهم ليعجزهم بها.

1-3- اتساق التركيب

صحيح أن الخاصيتين السابقتين ممّا يميّز به الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب، إلا أن الحديث عن سرّ الإعجاز الأسلوبي يقتضي البحث عن السرّ الذي اطرّد في القرآن كلّّه، حتّى جعل العرب الذين لم يكن لهم من العلم سوى ما آتتهم إياه الفطرة من حظّ في أفانين الأساليب نظمها ونثرها، أن يدركوا بمجرد أن يسمعه أنّه "جنس من الكلام غير ما هم فيه..."⁴، بل ليدركوا أنّه أرقى ممّا يمكن لقرائهم أن تجود به، وأنّه غاية ما أدركته وما ستدركه أسماعهم في البلاغة والفصاحة وحسن ائتلاف اللفظ، إذ "لما كان مرجع تقدير الكلام في بلاغته وفصاحته إلى الإحساس وحده - وخاصة في أولئك العرب الذين

¹ الرافي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 161.

² المرجع نفسه، ص 161.

³ المرجع نفسه، ص 162.

⁴ المرجع نفسه، ص 156.

من أين تأملتهم ورأيتهم كأنما خلقوا خلقاً لغوياً، وكان القرآن الكريم قد جمع في أسلوبه أرقى ما تحسّ به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذهب النفس إليه - فقد أحسّوا بعجزهم ...¹.

ويرى الرافعي أنّ هذا الارتقاء في الأسلوب القرآني راجع أولاً إلى مجموعة من الخصائص المعجزة التي يتميز بها التركيب القرآني، ألا وهي:

أ- الخاصية التي تجعل القرآن يبدو "كأنما وُضع جملة واحدة، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين... وإن كان فيما وراء ذلك متعدّد الوجوه التي يتصرّف فيها من أغراض الكلام... كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال..."²، وفي مقابل ذلك ما نجده من تفاوت وتباين ونقص في كلام البلغاء من نظم أو نثر، وقد أشار (الباقلاني) لهذا المعنى في قوله: "وهو أنّ عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرّف إليه من الوجوه التي يتصرّف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعدٍ ووعدٍ، وتبشيرٍ وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وسيم رفيعة، وسير مأثورة... ومتمى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التّفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرّف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبيان الاختلاف في شعره..."³.

ب- مناسبة ألفاظ القرآن لمعانيه مناسبة تامّة بحيث لا يمكن استبدالها بغيرها، ذلك أنّك "تراه يتخير من الألفاظ على درجات ليس معنى العجب فيها أن يقع التّخير عليها، ولكنّ العجب أن تستجيب ألفاظه على هذا الوجه المعجز... فتري اللفظ قارا في موضعه لأنّه الأليق في النظم، ثمّ لأنّه الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدّلالة، ومع ذلك الأحكم في الإبانة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة..."⁴.

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 158.

² المرجع نفسه، ص 201.

³ الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 36 و 37.

⁴ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 203.

يقول (عبد القاهر الجرجاني) في هذا المعنى: "...وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعُشرا عُشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها، أو يرى غيرها أصلح هناك أو أشبهه..."¹.

ج- السّحر الذي يضيفه التركيب القرآني لألفاظه، بحيث أنك "إذا حرّفت ألفاظه من مواضعها، أو أخرجتها من أماكنها، وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها... ورأيتها - وهي في الحالين لغة واحدة - كأنما خرجت من لغة إلى لغة..."²، وهو المعنى الذي جعل (الجرجاني) يرفض أن يجعل للكلمات المفردة فضلا ومزية، إذ يقول في دلائل الإعجاز: "وهل يقع في وهم وإنّ جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم...؟"³، كما له وقفة مع أحد الأمثلة على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود، 44] يقول فيها: "إن شككت فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلي، واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها"⁴.

هذا ممّا نقصناه من كلام الراجعي في باب من أبواب الأسلوب القرآني وفي باب (الجمل وكلماتها) وهي خصائص أطلق عليها اسم (روح التركيب القرآني)، ويمكن القول أنّها إشارات مُجملة تحمل في طياتها ما تناوله القدماء وخاصّة (عبد القاهر الجرجاني) فيما يخصّ الإعجاز التركيبي والإعجاز البياني.

أمّا السرّ الثاني والذي يحتلّ الصّدارة في حديث الراجعي من خلال عرض الأمثلة والشّرح فهو في مسحة القرآن اللفظية... التي تتجلّى في نظامه الصّوتي، أي اتّساقه وانتلافه

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 39.

² الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 201.

³ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 44.

⁴ المرجع نفسه، ص 45.

في حركاته وسكناته، ومدّاته وغمّاته... اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوِي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها كلام منظومٌ أو منثورٌ¹... وسنحاول بسط القول فيه في المبحث التالي.

2- الإعجاز الصوتي

بداية يمكننا القول أنّه من المنطقي أن يُنظر للإعجاز اللّغوي في القرآن من هذه الزاوية؛ أولا لأنّ المستوى الصوتي هو أوّل مستويات اللّغة ومكوّن أساسي فيها، يقول (ابن جنّي) في تعريفه للّغة: "أما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كلّ قومٍ عن أغراضهم"²، ثمّ لأنّ: أوّل منفذ عبر منه القرآن ليطلع في نفوس العرب أنّه ليس بكلام بشر قبل أن يتدبّروا معانيه، أو يتأمّلوا طرق نظمه وتركيبه، كان عن طريق التناسق الصوتي العجيب فيه، فقد كان "أوّل شيء أحسّته الأذن العربية أيام نزول القرآن هذا الجمال الصوّتي أو النّظام التوقيعي"³، الذي يستميل النفوس لأن تستمع له.

يقول (عبد الله دراز): "أوّل ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوّتي...ستجد اتّساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنّه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر...هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممّن يسمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟"⁴.

والدليل على ذلك ما روي من إسلام عمر بن الخطاب لأنه رَقّ للقرآن، وما روي عن ثلاثة من بلغاء قريش (الوليد بن المغيرة، الأخنس بن قيس، أبو جهل بن هشام) الذين كانوا يستمعون خلصة إلى القرآن من النبي صلى الله عليه وسلّم وهو يصلي في بيته⁵، بل وما نراه

¹ الزرقاني، مناهل العرفان، ص309.

² ابن جنّي، الخصائص، ج1، ص33.

³ عبد الله دراز، الثبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت، ص103.

⁴ المرجع نفسه، ص101.

⁵ ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1990م، ج1، ص342 و376 والرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص175.

في عصرنا ممن تأثر حدّ البكاء من الأعاجم بل ومن أسلم لمجرّد سماع القرآن، بالرغم من عدم فهمه له.

كما يرى الرافعي أنّه من الضروري تسليط الضوء على الحروف وأصواتها كعنصر مهم في إعجاز لغة القرآن، لأنّ من أهمّ أسباب استقامة اللسان العربي، هو الاهتمام بمخارج الحروف وصفاتها¹ ومراعاتها عند النطق وعند نظم الكلام، وهو ما جاءت به طريقة تلاوة القرآن، والتي كانت كذلك سببا لأحد أهمّ خصائص العربية وهي ثبات أصوات الحروف فيها، ولا يغيّر هذه الحقيقة بعض ما أصاب النطق في الأقطار العربية بعد الاختلاط بالأعاجم؛ لأنّ جوهر الصّوت العربي بقي واضحا وهوما يتمثل في قراءة القرآن الكريم، وقد شهد العالم لغات كثيرة وعرف لها أدبا وعلماء، ولكنها أصبحت تاريخا يذكر².

ثمّ إنّ هنالك فرقا بين استخدام القرآن وبين استخدام العرب للحروف وأصواتها؛ ذلك أنّ العرب " يترسّلون أو يحذّمون في منطقتهم كيفما اتفق لهم، لا يراعون أكثر من تكيف الصوت...إلى أن يتفق من هذه قطع في كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذي تكون فيه...فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جملة، أحيانا لغوية رائعة؛ كأنّها لا تتلافها وتتاسبها قطعة واحدة..."³، أي إنّهم يبطنون أو يسرعون في نطقهم، ولا يراعون تلك المعايير الصّوتية التي يراعونها في تلاوته وفي نظم كلماته وحروفه.

ودليله على ذلك أنك "إذا أنشأت ترتّل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن...فإنك لا بدّ ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلاغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن..."⁴؛ ذلك أنّ طريقة تلاوة القرآن هي التي تبرز جماله الصّوتي الناتج عن تناسق عناصره.

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص175.

² أحمد مطلوب، بحوث لغوية، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، 1987م، ص25 و27.

³ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص176.

⁴ المرجع نفسه، ص177.

يشير الرافعي في معرض حديثه عن الفرق في استخدام الحروف بين القرآن وكلام العرب إلى ظاهرة معروفة لدى علماء البلاغة القدماء هي ظاهرة (التلاؤم)، وذلك في قوله: "لكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها ... فلا بدّ لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً ويتألف منها شيء مع شيء فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها... ولا يكون إلا مع الترتيب الصوتي ..."¹، وهي، يعرفه (الزّمانى) بأنه " نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف"².

أمّا الفائدة منه فهي " حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى له في النفس ..."³، لذلك جعله ابن سنان الخفاجي أحد أسرار فصاحة اللفظ التي عدّها في كتابه (سرّ الفصاحة)⁴.

أمّا تعديل الحروف في التأليف فالمقصود به أن تكون مرتّبة " باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية ..."⁵، وبهذا يُعتبر الرافعي قد تجاوز ما اختلف حوله البلاغيون القدماء حول ما إذا كان التلاؤم يكمن في البعد الشديد والقرب الشديد في المخارج أو في أحدهما فقط، فذهب إلى أنّه يكمن في ترتيب الحروف في الكلمة بحسب مخارجها وباعتبار تناسب صفات الحروف المجاورة (الهمس والجهر، الشدة والرخاوة...)، إلّا أنه لم يذكر لذلك أمثلة، وقد ذكر (الخفاجي) ما في لفظة عذب من الحسن على أنه يختفي في "تقديم الذال عن العين... لضرب من التأليف في النغم"، ومثال ذلك أيضا ما في لفظة (ألم) من التلاؤم، في مواضع عديدة من القرآن منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 176.

² الزّمانى، النكت في إعجاز القرآن، ص 94.

³ المرجع نفسه، ص 96.

⁴ الخفاجي، سرّ الفصاحة، ص 60.

⁵ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 177.

فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ [الفيل، 1] لأن "الهمزة من أقصى الحلق والميم من الشفتين واللام متوسطة بينهما ..."¹.

وأهم عناصر الإعجاز الصوتي في القرآن التي توسّع فيها الرافعي هي:

2-1- الفاصلة القرآنية

يرى الرّماني أنّ " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عجيب، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني... وفواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل عليها بها"²، وما يفهم من هذا التعريف أن الفواصل القرآنية تأتي تنمّة لمعنى الآية ومناسبةً وحُسن إفهام لها.

أمّا الرافعي فلم يُشر في الموضوع الذي نحن فيه إلى أنّ الفواصل تأتي تنمّة لمعنى الآية، بل أشار إلى الغرض والميزات الصوتية فقط في قوله: " وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متّقة في قرار الصّوت اتفاقاً عجيباً...وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن..."³، وقد علّق على هذا القول تعليقا شارحا مفاده أنّ "الفواصل وختامها يوافق ما ذهب إليه العلماء في رؤية كلام العرب أنهم عندما يريدون التغمّي أو يريدون إحداث نغم في كلامهم وفي أشعارهم يختارون حروف اللين أو حروف المد للانتهاء بها ، أو حرف النون وحرف الميم ، ولذلك تجد روائع القصائد ما يسمى بالميمية والنونية التي تنتهي بهذه الأحرف التي تحدث نغما صوتيا⁴، وقد سمى هذه الظاهرة التي يستخدمها القرآن في استمالة الأنفس عن طريق الأسماع من خلال الفواصل، بالاستهواء الصوتي في لغة القرآن.

¹ الخفاجي، سرّ الفصاحة، ص61.

² الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص97.

³ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص178.

⁴ الإعجاز اللغوي في القرآن، جامعة المدينة 2011، ص110.

2-2- حركات الكلمة

يُبين لنا هذا المعنى عن أحد مظاهر اهتمام القرآن بالكلمة بحيث يهيئ للكلمة الثقيلة في نفسها من الحركات ما يجعلها عذبة مستساغة في موضعها منه، إذ " لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري... مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مُساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إنّ الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها .. فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا... وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة"¹، يفهم من ذلك أيضا أنّ الحركات لا يقل دورها أهمية عن دور الحروف في ائتلاف التسق الصوتي للقرآن .

ومثال ذلك لفظة (النذر) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر، 36] أما الثقل المُشار إليه فهو كائنٌ فيها لتوالي حركة الضمّ " على النون والذال معا فضلا عن جساءة هذا الحرف وتبؤّه في اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام"²، وهو ممّا ذهب ابن الأثير لاعتباره من أسباب الثقل في الألفاظ إضافة لكون الضمة أثقل الحركات، ثمّ أشار إلى هذه الآية باعتبارها قد شدّت عن قاعدته (الثقل لتوالي الحركات)³.

إلا أنّ الراجعي تجاوز مُجرّد الإشارة إلى التحليل والتفسير في قوله: "فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثمّ أنعم على تأمله، وتدوّق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حسّ السمع وتأمّل مواضع القلقلّة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتواضعة فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمدّ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات... ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد... ثمّ ردّد نظرك في الرّاء من (تماروا) فإنّها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه

¹ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 186 و 187.

² المرجع نفسه، ص 187.

³ ابن الأثير، المثل السائر، القسم الأول، ص 206.

ولا تغلظ ولا تتبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أندهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)¹.

وهو أحد التحليلات التي نالت إعجاب الباحثين لما فيه من التفصيل والإمام، فلا يكاد يتناول أحد هذا الموضوع إلا وينقله حرفياً، وعلق عليه أحد الباحثين بقوله: "...ومنهجه واضح من حيث الكشف عن التلاؤم بين صوتيات الآية، وهذا يدل على نظرة علمية موضوعية... ففيه لفحة موسيقية تستمد ركائزها من معطيات علم التجويد إضافة إلى فنّ الموسيقى، والذوق الموسيقي الرفيع...²، وبالرغم من ذلك لم يسلم من النقد فقد أخذ عليه أنّ نظره جزئية؛ إذ لا يمكن تطبيق هذا التحليل على كلّ المواضع التي تكررت فيها لفظة النذر³.

2-3- عدد حروف الكلمات

تنبّه بعض القدماء إلى أنّ مما يجعل الكلمة خارج حيز الفصاحة كثرة حروفها، فقد صرح (الخفاجي) بأنّ أحد شروطها "أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنّها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبّحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة"⁴ ومن ذلك لفظتي (أذربيجان) و(استسماجها) في ما استدللّ به ابن الأثير من قول (أبي تمام):

فَلأَذْرِبِجَانَ إِخْتِيَالًا بَعْدَ مَا كَانَتْ مَعْرَسَ عِبْرَةٍ وَنِكَالٍ

سَمُجَّتْ وَنَبَّهْنَا عَلَى إِسْتِسْمَاجِهَا مَا حَوْلَهَا مِنْ نُضْرَةٍ وَجَمَالٍ⁵

ولفظة (سويداواتها) في قول (المتنبي):

إِنَّ الْكَرِيمَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمْ مِثْلَ الْقُلُوبِ بِلَا سُؤْيَدَاوَاتِهَا⁶

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 187.

² أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، تق: نور الدين عنز، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1999م، ص 210.

³ المرجع نفسه، ص 210.

⁴ الخفاجي، سر الفصاحة، ص 80.

⁵ المرجع نفسه، ص 81.

⁶ المرجع نفسه، ص 81.

في حين أنّ (ابن الأثير) قد رأى رأياً آخر وهو أن الحسن من الألفاظ ما كان أصله ثلاثياً أو رباعياً فقط، أمّا ما كان أصله خماسياً "فإنّه قبيحٌ ولا يكاد يوجد منه شيء حسن"¹، وخالف (الخفاجي) في حكمه على فصاحة اللفظ حسب عدد حروفه فقال في ذلك: "وهذا لا يُعتبر فيه طول ولا قصر، وإنّما يُعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض"² "ودليله على ذلك لفظة (ليستخلفنهم) في قوله تعالى: ﴿لَيْسَتْخَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور، 55] ولفظة (سيكفيكهم) في قوله عزّ وجل: ﴿سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة، 137]، فإنّ الأولى عشرة أحرف والثانية تسعة أحرف "وكلتاها حسنةٌ رائعةٌ...ولو كان الطول ممّا يوجب قُبْحاً لَقُبِحَت هَاتَانِ اللَّفْظَتَانِ وليس كذلك"³.

أمّا الراجعي فقد ذهب مذهبا ثالثا، يجمع فيه بين الرأيين، فوافق الخفاجي في أنّ ممّا يجعل اللفظة مستقلة كثرة حروفها، ووافق ابن الأثير في أنّ اللفظتين (ليستخلفنهم) و(سيكفيكهم) قد خالفتا هاتاه القاعدة، وأنّ ممّا يُعتبر في خفة اللفظ نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض، نتيّج هذا من قوله: "وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطولُ الكلام عدد حروف ومقاطع ممّا يكون مستقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنّها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجا سريّا، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعدبها منطقاً وأخفّها تركيباً، إذ تراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها..."⁴ مُستدلا بالآيتين المذكورتين، مُعلّقا على أسباب العذوبة في اللفظة الأولى (ليستخلفنهم) "فهي لفظة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوّع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها، فإنّها بذلك صارت في النطق كأنّها أربع كلمات؛ إذ تُتطَق على أربعة مقاطع..."⁵.

¹ ابن الأثير، المثل السائر، القسم الأول، ص205.

² المرجع نفسه، القسم الأول، ص205.

³ المرجع نفسه، القسم الأول، ص204.

⁴ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص188.

⁵ المرجع نفسه، ص188.

وقوله (أربعة مقاطع) يعني تقسيمها بهذا الشكل: ليس/تخ/لفن/نهم، بحيث ينتهي المقطع عند كل ساكن، وهو بذلك يشير إلى ما أشار إليه (عبد الله دراز) في معرض حديثه عن سر الجمال التوقيعي في لغة القرآن الذي يجعلك لا تمل من الاستماع له ، بحيث "تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعرّوك منه على كثرة تردها ملالة ولا سأم..."¹.

أما اللفظة الثانية (فَسَيَكْفِيكُمْ) فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المدّ الذي هو سرّ الفصاحة كلّها²، فهي ثلاثة مقاطع أي هكذا : فسيك/في/كهم/، فتنتطق بذلك كأنها ثلاث كلمات، وإثباتا لدور المدود في خفة كلمات القرآن وتصديقا لما جاء به (ابن الأثير) حول الكلمات العربية ذات الأصول الخماسية التي لم يرد منها شيء في القرآن، يضيف الرافعي " أمّا أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء، لأنّه مما لا وجه للعذوبة فيه، إلا ما كان من اسم عرّب...كإبراهيم، وإسماعيل، وطالوت، وجالوت...ولا يجيء به مع ذلك إلا أنّ يتخلله المدّ كما ترى؛ فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان"³، وننفذ من كلامه إلى أنّه يحاول بيان دور المدود في خفة اللفظ وحسنه.

2-4- غرابة الكلمة

قسّم ابن الأثير الألفاظ إلى ثلاثة أقسام: قسمان حسنان وقسم قبيح.

والقسمان الحسنان:

أحدهما ما تداول استعماله الأول والآخر، من الزّمن القديم إلى زماننا هذا، ولا يُطلق عليه أنّه وحشي.

¹ عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص102.

² الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص188.

³ المرجع نفسه، ص188.

والآخر: ما تداول استعماله الأول دون الآخر... وهو الذي لا يُعاب استعماله عند العرب، لأنه لم يكن عندهم وحشياً، وهو عندنا وحشي. وقد تضمّن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهي التي يطلق عليها (غريب القرآن) ¹، وقد شرح أنّ الوحشي من الألفاظ لا يُقصد به القبيح، بل الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال.

ومثال ذلك لفظة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم، 22] وقد جاء في معناها "أي جائرة: يُقال: ضِيزَتْ في الحُكْم أي جُرْتُ... و(ضيزى): فُعلَى؛ فكُسرَت الفاء للياء وليس في التّعوت (فُعلَى) ².

وهي على غرابتها، قد جاءت في القرآن عذبة حسنة مناسبة لموقعها حتى قال عنها الراجعي أنها " ما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه... فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بناتٍ لله مع أولادهم البنات فقال تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم، 21-22].

فكانت غرابة اللفظ أشدّ الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلّها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى... ووصفت حالة المتهمك في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذي المدّين إلى الأسفل والأعلى... فكأنّ في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس... وإن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها، إذ هي مقطعان: أحدهما مدّ ثقيل والآخر مدّ خفيف، وقد جاءت عقب غننتين في (إذن) و(قسمة) وإحداهما خفيفة حادة والأخرى ثقيلة

¹ ابن الأثير المثل السائر، القسم الأول، ص 176.

² ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تفسير غريب القرآن، دار الكتب العلمية، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1978م، ص 328.

متفسيّة، فكأنّها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقي...¹ وهو بذلك قد جمع من أسرار استعمال هاته اللفظة في هذا الموضع أربعة معانٍ إعجازية وهي:

– ما تنبّه إليه ابن الأثير من أن مجيء هذه اللفظة الغريبة بدل مرادفاتها (جائرة/ ظالمة) هو مناسبتها للحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه وهو الألف المقصورة.

– استعمال اللفظة الغريبة في وصف قسمة غريبة لا يقبلها عقل ولا منطق، أي مناسبة غريبة للفظ لغريبة القسمة التي جاءت لوصفها.

– التصوير الحسي في أصوات اللفظة لحالة الإنكار والتّهكم في الآية حيال هاته القسمة، وكثيرة هي الألفاظ التي تصوّر في أجراس حروفها الصورة شاخصة، ومثال ذلك ما أشار إليه سيد قطب من لفظة (اثاقلتم) في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ [التوبة، 38]، إذ يتصور الخيال حين النطق بها أو سماعها " ذلك الجسم المثقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل... ولو أنك قلت: ثناقلتم، لخفّ الجرس، و لضع الأثر المنشود و لتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ...².

– التّناسق الصوتي للفظ مع ما سبقها بحيث جاءت على مقطعين (ثقيل وخفيف) وسبقتهما غنتان (ثقيلة وخفيفة).

وقد أعجزت هذه الكلمة الغريبة (ضيّزي) في موضعها من القرآن حين وقّفت بين التّناسق الصّوتي ورعاية المعنى.

¹ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 189.

² سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 90-91.

2-5- حروف الزيادة:

من الأبواب التي عقدها النحويون في مؤلفاتهم ما يُسمّى (حروف الزيادة)، وهي: إن، وأن، وما، ولا، والباء، واللام...¹.

فلما عارض البعض وصفها بالزائدة، لأنها غالباً ما تفيد فائدة معنوية وهي تأكيد المعنى، قيل: إنما سُميت زائدة؛ لأنه لا يتغير بها أصل المعنى، بل لا يزيد بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته، فكأنها لم تُقد شيئاً، لما لم تُغَيِّر فائدتها العارضة، الفائدة الحاصلة قبلها².

ولما قال الراجعي عن القرآن أنه: " استحال أن يقع في تركيبه ما يسوّغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض..."³ فإنه قد جعل لهاته الحروف نصيباً من الإعجاز، من خلال بيان الحكمة من وجود بعض الحروف (حروف الزيادة) في القرآن، لكنه فسّر قبل ذلك قول النحويين بأنها زائدة "أي في الإعراب فيظنّ من لا بصر له أنها كذلك في النظم..."⁴ وليثبت كلامه استعان بمثالين هما :

– حرف (ما) في قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران، 159]، اتفق المفسرون على أنّ (ما) هنا جاءت لتؤكد أنّ لين رسول الله صلى الله عليه وسلّم مع قومه لم يكن إلا برحمة من الله تعالى، أي لتؤكد معنى القصر الذي أضافه تقديم المجرور (برحمة)⁵.

¹ الرضي محمد بن الحسن الاسترآبادي، شرح كافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1993م، ط1، القسم الثاني، ص1371.

² المرجع نفسه، القسم الثاني، ص1371.

³ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص184.

⁴ المرجع نفسه، ص189 و190.

⁵ ينظر: جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2009م، ط3، ج4، ص202 والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص144.

ورأى الراجعي أنّ المراد في الآية " تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، وإنّ ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المدّ في (ما) وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخّمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تُشعر بانعطاف وعناية... ثمّ كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ الرحمة) مما يلفت النفس إلى تدبّر المعنى وبنبه الفكر على قيمة الرحمة فيه... " ¹.

- حرف (أنّ) في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف، 96]، تُصوّر هذه الآية لحظة تبشير سيدنا يعقوب عليه السلام بأن ابنه سيدنا يوسف عليه السلام حي بعد غياب اثنين وعشرين سنة، إذ بشره بذلك ابنه يهوذا حين ألقى على وجهه قميص يوسف فردّ إليه بصره بعد ما كان فقده من شدة حزنه على فقد ابنه ²، لذلك قال (ابن عاشور) أنّ (أنّ) هنا "مزيدة للتأكيد... وفائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب عليه السلام لأنها خارق عادة... " ³.

أمّا الراجعي فقد نظر للأمر من زاوية أخرى حين رأى أنّ الخصائص الصوتية التي تضيفها (أنّ) للآية تناسب المعنى الذي جاءت لتصويره وهو " الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعده ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام وأنّ ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب وتصف الطرب لمقدمه واستقراره، غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة؛ وهي (أنّ) في قوله (أن جاء) " ⁴.

2-6- الجمع والإفراد

من أعجب ما لوحظ في القرآن فيما يخص استعمال الألفاظ هو استخدامه لبعضها بصيغة المفرد فقط واستعماله لأخرى بصيغة الجمع فقط، وقد تنبّه لهذا المعنى (يحيى العلوي) حين حاول أن يقدّم بحثاً حول فصاحة المفردة... ومما لفت نظره من الكلمات التي

¹ الراجعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص190.

² ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج13، ص53.

³ المرجع نفسه، ج13، ص53.

⁴ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص190.

وردت بصيغة الجمع فقط هي: أكواب، أصواف، أبواب... وانتهى من خلالها إلى الحكم عليها بالفصاحة على عكس صيغها المفردة¹، ويبدو أنّ هذا المعنى لفت نظر الراجعي أيضا "فحاول أن يلقي فيه أضواءً من عنده مستعينا بطبيعة الأصوات...²"، ويمكن عرض ما جاء به على قسمين:

- جموع لا مفرد لها: يرى الراجعي أنّ ممّا لا يسعه طوق إنسان في نظم الكلام البليغ، ثم ممّا يدل على أنّ نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر هو استعماله للفظ (لب)، ذلك أنّها لم ترد فيه إلا مجموعة (أبواب) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر، 21] وقوله: ﴿وَلْيَذَكَّرْ أُولُوا الْأَبْوَابِ﴾ [إبراهيم، 52] ونحوهما³، ثمّ جعل السبب في ذلك تفادي الثقل الموجود في اللفظة وهي بصيغة المفرد "وذلك لأنّ لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثمّ فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها... فأسقطها من نظمه بنّة...⁴، ودليله على ذلك أن القرآن لم يُسقط لفظة (الجُبّ) من نظمه بالرغم من أنّها نظيرتها في الوزن والنطق والسبب في ذلك " حسن الائتلاف بين الجيم والباء...⁵ في مقابل ثقل اجتماع اللام والباء.

وليس ذلك فقط بل إنّ القرآن في المواضع التي احتاج فيها لفظة (اللب) مفردة جاء بمرادفتها وهي لفظة (القلب)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق، 37].

- مفردة لا جمع لها: ما أثار الدهشة من هذا المعنى هو أمر لفظة (الأرض) التي لم ترد ولو مرة واحدة بصيغة الجمع في القرآن، وحتى في المواضع التي تقتضي ذلك، مثل

¹ ينظر: يحيى العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، 1914م، ج3، ص50_45.

² أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص212.

³ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص190.

⁴ المرجع نفسه، ص191.

⁵ المرجع نفسه، ص191.

قوله تعالى: ﴿فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة، 164] وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة، 10] وأعجب ما في أمر هذه اللفظة من القرآن هو ذلك الموضع الذي احتاج فيه إلى جمعها فأخرجها " على هذه الصورة التي ذهبت بسرّ الفصاحة وذهب بها، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كلّ فكر سجدة طويلة،¹ وهي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق، 12]."

وذهب المفسرون مذاهب في القول بعلّة هذا الاختلاف بين لفظتي السماوات والأرض، واستبدال صيغة الجمع للأرض بعبارة (ومن الأرض مثلهن) منها:

ـ يرى أبو حيان الأندلسي أنّ السماء والأرض متماثلتين في العدد فقط، لذا تمّ التعبير بـ (مثلهنّ) ذلك أنّ المثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف فقط.²

ـ ذهب ابن عاشور إلى أنّ أفراد الأرض دليل على أنّها أرض واحدة على عكس السماوات وأنّ المماثلة في قوله (مثلهنّ) راجعة إلى المماثلة في عظيم الخلق، ذلك أنّ المراد بالآية الدلالة على عظمة خلق الله.³

ـ أمّا ابن القيم والزركشي فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بورود الأرض مفردة في كل موضع من القرآن أنّها أقلّ شأنًا من السماوات؛ فهي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء وإن تعدّدت فهي كالواحد القليل، وهي كذلك كدار الدنيا بالنسبة إلى الآخرة... التي لم يذكرها الله تعالى إلا مُقَلَّلًا لها.⁴

إنّ من ينظر إلى هذه الظاهرة نظرة سطحية يحسب أنّها تصب في الجانب الصرفي؛ ذلك أنّ (الجمع والإفراد) من مباحث علم الصرف، وبالنظر في أقوال المفسرين نرى ميلهم

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 191.

² أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، مراجعة: صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2010م، ج 10، ص 205.

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 28، ص 339.

⁴ ينظر: ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمّد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مج: 1، ص 201 ويدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج 4، ص 6 و 7.

نحو الجانب الدلالي ببحثهم في دلالة عدول القرآن عن هذه الصيغ وذلك ما يفرضه عليهم مجالهم، أما الرافعي فقد كان بعيداً عن النظرتين، إذ علق عن الآية بقوله: "ولم يقل: وسبع أرضين؛ لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً، وأنت فتأمل رعاك الله ذلك الوضع البياني، واعتبر مواقع النظم، وانظر هل تلاحق هذه الأسباب الدقيقة أو تتيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة، أو بتكلفة من القول، وإن استقصى فيه الذرائع، وبالغ الأسباب، وأحكم ما قبله وما وراءه..."¹، فقد نظر إليها نظرة أديب متذوق، يرى أنّ المقصود من هذا العدول موازنة الإيقاع الصوتي للآية من خلال تجنّب كل ما فيه ثقل، بل وجمع إلى ذلك حسن البيان؛ ذلك أن القرآن لم يعدل عن صيغة الجمع للفظ الأرض فقط بل إنّه "حين اقتضى السياق جمعها أخرجها على صورة رائعة معجزة تُحقّق الغرض من الجمع دون ذكر اللفظة..."².

2-7- العدول عن المبتدل

يقول الله عزّ وجلّ على لسان فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص، 38]، جاءت الآية حسب (ابن عاشور) ردّاً على قول موسى عليه السلام أنّ إله الحقّ هو ربّ السماوات، فظنّ فرعون أنّ مقرّه السّماء وأمر وزيره أن يبني له صرحاً يبلغ به عنان السماء ليرى إله موسى، والمُرَاد بالإيقاد على الطّين، صنْع الآجر الذي يستخدم في البناء، ذلك أنّ الطّين هو قوام صنْع الآجر³، وبناء على ذلك ذهب بعض المفسرين إلى أنّ سبب العدول عن هاته اللفظة إلى ذلك التركيب (أوقد لي يا هامان على الطين) هو أنّ فرعون كان يُعلم وزيره (هامان)

¹ الرافعي إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص191.

² كباس عبد القادر، النظم الموسيقي في القرآن، قراءة في كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي نموذجاً، مجلة (لغة-كلام) مخبر اللغة والتواصل، جامعة غليزان، الجزائر، مج:08، العدد:03، جوان2022، ص100.

³ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 20، ص122.

بكيفية صنع الآجر من الطين لأنه لم يتقدّم له علمٌ بذلك، وأنّ فرعون هو أول من عمل الآجر¹.

وتنبّه (ابن الأثير) إلى أنّ القرآن قد عدل في هذا الموضع عن لفظة (الآجر) ومرادفتيها (القرمد) و(الطوب)؛ وذلك لأنها تنتمي لقسم الألفاظ المبتذلة أي "الضعيفة السخيفة، كثيرة التداول بين العامة، والتي إذا وردت في الكلام وضعت من قدره ولو كان معنى شريفاً، وفي مقابل ذلك عاب استخدام شعراء العربية لها"²، من ذلك قول (النابغة الذبياني):

مِنْ آلِ مِيَّةٍ رَائِحٍ أَوْ مُغْتَدٍ³

أَوْ دُمِيَّةٍ فِي مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ بُنِيْتُ بِأَجْرٍ يُشَادُ بِقَرْمَدٍ⁴

ويبدو أنّ الراجعي قد استفاد من وقفات المفسرين والبلاغيين، إلى أنّ "تبيين في الاستخدام القرآني لهذه الصورة وجوها من المعاني والأغراض ممّا لم يُلمّ به ضياء الدين"⁵، إذ قد عزا عدول القرآن عن لفظة (الآجر) إلى ثقلها الناتج من تركيب حروفها، فيقول في ذلك: "ومن الألفاظ لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمة وسائرهما نافر متقلقل... فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهي (القرمد)، وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثمّ أخرج معناها بألفظ عبارة... وأعذبها... فانظر، هل تجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع وأبدع من هذا؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسّه... ولا يقول آمنتُ بالله ربّاً وبمحمد نبياً وبالقرآن معجزة؟"⁶، وفي المقابل أبان عن دهشته وطربه لذلك التّركيب الذي اخترعه القرآن ليكون بديلاً، فجاء

¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ج08، ص306.

² ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، القسم الأول، ص199 و200.

³ أبو أسامة بن معاوية بن ضباب الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2005م، ص38.

⁴ المرجع نفسه، ص40.

⁵ كباس عبد القادر، النظم الموسيقي في القرآن، ص101.

⁶ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص192.

غاية في الفصاحة والعدوية، وذلك من "موقع هذه القلقة التي هي في الدال من قوله: {فَأَوْقِدْ} وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة ممّا لا يُطاق أن يُعبّر عن حسنه، وكأنّما تنتزع النفس انتزاعاً"¹، وليس هذا فقط بل قد اهتدى من ذلك أيضاً إلى فائدة معنوية وهي أنّ المراد من التعبير بالإيقاد على الطين في الآية أن " تُحَقَّر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتُسَفِّه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين...!"².

2-8- اصطفاف الكلمات

ختم الراجعي جملة حديثه عن الإعجاز الصوتي بهذا المثال، الذي يبيّن من خلاله أنّ كلّ العناصر اللغوية في التركيب القرآني لها نصيب من الدلالة على إعجازه مهما كان نوعها وتصنيفها وأهميتها، ومنها (الأسماء الجامدة) التي لو تدبّرت الآيات التي ليست إلا سلسلة منها "مظنّة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيرها عنه، لنظم حروفه و مكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية..."³.

ومثاله على ذلك هو ما استدلّ به (ابن الأثير) على أنّ ما في القرآن من مراعاة لأسرار ودقائق استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية⁴، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف، 133] حين أشار إلى أنّ الألفاظ الخمسة (الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، والدّم) جاءت على هذا الترتيب دون غيره في الآية مراعاةً لحسنه في السمع، ويوضّح ذلك في قوله: "فلما وردت هذه الألفاظ بجملتها قدّم منها لفظنا (الطوفان) و(الجراد) وأخرت لفظة (الدّم) آخراً، وجعلت لفظة (القمل)

¹ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص192.

² المرجع نفسه، ص192.

³ المرجع نفسه، ص192.

⁴ ابن الأثير، المثل السائر، القسم الأول، ص169.

و (الضفادع) في الوسط، ليطلق السَّمْعَ أولاً الحسن من الألفاظ الخمسة، وينتهي إليه آخراً، ثُمَّ إِنَّ لَفْظَةَ (الدَّم) أَحْسَنَ مِنْ لَفْظَتِي (الطوفان) و (الجراد) وَأَخْفَّ فِي الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخراً...¹.

وليس رأي الراجعي إلا مُشابهاً له، مضيفاً عليه مزيداً من التوضيح، إذ يقول: "فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدّم) وأثقلها (القمل والضفادع) فقدّم الطوفان لمكان المدّين فيها؛ حتى يأنس اللسان بخفّتها؛ ثمّ الجراد وفيها كذلك مدّ؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه؛ ثمّ جيء بلفظة (الدّم) آخراً، وهي أخفّ الخمسة وأقلّها حروفاً ليسرع اللسان فيها...² ويتمثل توضيحه في أن بيّن بعض أسباب خفة (حُسن) الألفاظ الثلاثة (الطوفان، الجراد، الدّم)، وهي: المدود، وقلة الحروف .

أمّا النكتة (الفائدة) المعنوية التي أشار إليها في قوله: "...لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية...³"، فهي أنّ كلّ لفظٍ من هذه الخمسة هو عذاب سلّطه الله سبحانه وتعالى على قوم فرعون في كلّ مرّة كانوا يُعاهدون نبيّهم (موسى عليه السلام) بأن يؤمنوا ثمّ ينقضون العهد، وهي مرتّبة في الآية حسب ترتيب نزولها عليهم⁴، وبهذا نخلص إلى أنّ هذه الأسماء الجامدة الخمسة قد جمعت في ترتيبها إلى جانب أداء الغرض الدلالي، جمالية صوتية.

رابعاً: مقارنة بين الراجعي والجرجاني من حيث الإعجاز اللغوي.

سنقارن في هذا المبحث بين الرجلين في قضايا الإعجاز اللغوي من حيث المستويات

الآتية:

¹ ابن الأثير، المثل السائر، القسم الأول، ص169.

² الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص192 و193.

³ المرجع نفسه، ص192.

⁴ ينظر: الزّمخشري، تفسيرالكشاف، ج9، ص381_382 وابن عاشور، التحرير والتوير، ج9، ص69_70 وأبو حيان

الأندلسي، البحر المحيط، ج5، ص150_151.

1- من حيث الهدف

مما لا شك فيه أنّ ما جاء به الجرجاني في كتبه الثلاثة (الدلائل والأسرار والرسالة)، وما جاء به الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) من أفكار كلّها تسير نحو غاية كبرى واحدة وهي إثبات إعجاز القرآن، عن طريق الكشف عن أسرار اللغة العربية، وهذا لا يمنع وجود دوافع أخرى تتدرج تحت هاته الغاية الكبرى.

فبالنظر إلى كتب الجرجاني (الدلائل والأسرار والرسالة) نرى أنّها تتكامل ثلاثتها في بيان دلائل إعجاز القرآن من وجهة نظر صاحبها، يشكّل كلّ واحدٍ منها هدفا جزئيا، وهو يبين في مطلع كلّ كتاب الحافز الذي دفعه إلى تأليفه.

يهدف في الرسالة الشافية إلى سرد دلائل عجز العرب عن معارضة القرآن، وأهمّها: أحوال العرب الذين وقفوا عاجزين أما تحدّي القرآن المباشر لهم، وهم أهل الأنفة والحمية والكبرياء، وكذلك أقوالهم، وهي أقوال المشركين عند سماع القرآن التي يقرون فيها بأنّه ليس بكلام بشر¹، كما يهدف إلى دحض الشبهات المتعلقة بالإعجاز اللغوي المتصل بالبشر مثل ما نُسب إلى امرئ القيس (شبهة الانفراد بالعظمة البيانية في عصر من العصور، وشبهة عجز العرب عن النظم في مثل معاني القرآن...) ²، ثم يهدف في أسرار البلاغة إلى وضع التقسيمات والقوانين والفروق الخاصة بفنون البلاغة³، مستدلا بكلام العرب والقرآن، لبيان أنّ فنون البلاغة هي المعايير التي تقاس بها جودة الكلام وحسنه.

ومما يظهر لمن يمعن النظر في كتابي (الدلائل والأسرار) أنّ للجرجاني غاية تجمع الكتابين وهي بيان القوانين التي يتم من خلالها النظر والفهم السليم للبيان القرآني ومناهج تأليفه... ونواحي جماله وتأثيره، وذلك من ناحيتين: ناحية البناء والنظم والتركيب وهي

¹ ينظر: أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص44 وعبد العزيز عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1985م، ص565.

² ينظر: أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص26-27.

³ المرجع نفسه، ص38.

المقصودة في دلائل الإعجاز، وناحية الصياغة والتصوير والجمال وهي المقصودة في أسرار البلاغة¹، وتجتمع هذه الأهداف كلها تحت نظرية متكاملة يجيب فيها عن سؤال الإعجاز هي "نظرية النظم".

أمّا كتاب الراجعي (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) فقد كان جزءاً من (تاريخ آداب العرب) الذي عزم فيه على التأريخ للسان العربي وبيان مراحل تطوره، لذلك فإنّ هدفه الأول كان الحديث عن القرآن كأحد أهمّ الأسباب اللسانية التي جرت عليها الفصاحة العربية، وأبرز أسباب اعتدال اللسان العربي، ثمّ إنّ الفترة التي ظهر فيها الكتاب جعلت الهدف الثاني منه أن يكون سداً منيعاً في وجه تيار المنتقسين من العربية والملحدين في آيات الله².

2- من حيث المنهج

نقصد بالمنهج الطريفة التي اتبعتها الرّجلان في حديثهما عن الإعجاز، من حيث تسلسل الأفكار، والمواضيع التي اتكأ عليها للوصول إلى غايتها. ومما لاحظناه في منهج الجرجاني وبخاصّة في (الدلائل) أنّه يدير جلّ حديثه عن الإعجاز من خلال دحض آراء المعتزلة، فيقوم بردّ الشبهة ثمّ يعرض رأيه الخاص، ويقدم الأدلة على ذلك، كما أنّه لا يتبع تبويبا معيناً أو ترتيباً منطقياً، بل يعيد ويكرّر الكثير من الأقوال في مواضع كثيرة من الكتاب.

ومما يؤخذ عليه في طريفته هو قلّة استدلاله بالقرآن في مقابل كلام العرب³، من بينما أنّ بيان سرّ الإعجاز يجب أن يقوم على الموازنة بين كلام العرب والقرآن وبيان أفضلية القرآن، ولعلّ السبب في ذلك يكمن في أنّ "وجه الإعجاز عنده لم يكن غاية في أصله، إنّما إبراز الوسيلة التي يتمّ بها فهم البيان القرآني، وهذه الوسيلة هي من لغة العرب،

¹ محمد خلف الله، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1947م، ص75.

² محمّد رجب البيومي، مصطفى صادق الراجعي فارس القلم تحت راية القرآن، ص95-96.

³ محمّد بركات حمدي أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، الأردن، ط1، 1984م،

ومن طرائقهم...¹، فهو لم يقدّم بدراسة البيان القرآني بل بين الطريقة المناسبة لذلك، من خلال إجرائها على كلام العرب.

غير أنّ الرافعي اتكأ في منهجه بداية على مجموعة من المواضيع التي يتبيّن للوهلة الأولى أنّها لا علاقة لها بالإعجاز، وهي: تاريخ القرآن، القراءة وطرق الأداء، آداب القرآن، القرآن والعلوم، إلا أنّنا وجدنا أنّه قد حشد كل خبراته، ومعرفته بالقرآن لاستنباط العامل الإعجازي في كلّ موضوع منها من أجل إثبات أنّه كلّما قلب الإنسان بصره في كلّ ما يتعلّق بالقرآن وجد سرّاً من أسرار إعجازه، وقد قيل عن هاته الطريقة أنّها من أساليب القدماء في مصنّفات علوم القرآن².

كما أنّه يراعي نوعاً من التسلسل والترابط في ترتيب المواضيع وطرحها، فبعدما فرغ من الحديث عن المواضيع التي تتعلّق بالقرآن، من ناحية تاريخه ولغته وتشريعاته وعلومه، ينتقل لبيان ما يعنيه مصطلح (الإعجاز) عنده ثم يخوض في أقوال السابقين في الإعجاز، فلم يكن في ذلك مجرد جامع للآراء بل كان ناقداً فاحصاً، ومن ذلك أنّه حمل على المتكلمين حملات ترمي آراءهم بالسخر، ورفض القول بالصرف (الرأي القائل بأن العرب عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن لأنّ الله صرفهم ومنعهم)³.

3- من حيث قضايا الإعجاز اللغوي

3-1- الإعجاز التركيبي

يحتلّ علم التراكيب الصّدارة في حديث الجرجاني عن الإعجاز اللغوي، ذلك أنّ الآليات التركيبية التي توسّع وفصل فيها في (الدلائل) من: تقديم وتأخير، فصل ووصل، حذف وذكر... هي أهمّ أسرار إعجاز التّركيب القرآني.

¹ محمد بركات حمدي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، ص74.

² بن نعم سعاد، أسس الإعجاز القرآني عند مصطفى صادق الرافعي والدراسات القرآنية، ص180.

³ حفني محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، اللجنة العامة للقرآن والسنة، 1970م، ص206.

أمّا الرافي فلم يشر إلى الإعجاز التركيبي إلا ما تعلق باتساق التركيب كمبحث من مباحث الإعجاز الأسلوبي، وهي إشارات عامّة مجمّلة ينقصها الكثير من التفصيل.

3-2- الإعجاز البياني

إنّ أهمية علم البيان عند (عبد القاهر الجرجاني) واضحة من خلال المساحة الكبيرة التي خصّصها له في كتابيه الدلائل والأسرار، ناهيك عن أنّ من الأغراض الرئيسية لتأليفه دلائل الإعجاز هو ردّ الاعتبار لهذا العلم وبيان مكانته، يقول فيه: "ثمّ إنك لا ترى علما أرسخ أصلا وأسبق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب وردا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا، من علم البيان...إلا أنّك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه...ودخل على الناس من الغلط فيه ما دخل..."¹.

ومصطلح البيان عند الجرجاني لم يكن خاصّا بالفنون البيانية المعروفة في كتب المتأخرين (الاستعارة والكناية والتشبيه والتمثيل) فقط، ولكنّه مصطلح عام يشمل البلاغة كلّها،² وهو عنده أيضا الفصاحة والبلاغة والبراعة.

ولمّا كانت الفنون البيانية (التشبيه والتمثيل والاستعارة) في نظر (الجرجاني)، أوّل وأولى وأحقّ ما يستوفى بالنظر ويستقصى بالعناية، لأنّها أصول كبيرة تعود إليها محاسن الكلام، فإنّها وإن لم تكن معجزة بنفسها في القرآن، إلا أنّ لها نصيباً من الإعجاز، يقول الجرجاني في ذلك: "فإن قيل: قولك "إلا النظم" يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو معجز به...قيل: بل يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو معجز به، وذلك لأنّ هذه المعاني من مقتضيات النظم، لأنّه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يُتوخّ فيما بينها من أحكام النحو"³.

¹ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص5-6.

² ينظر: أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص121-122.

³ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص393.

أمّا الرافعي فلا نكاد نجد عنده إشارة للإعجاز البياني، بل ويذكر في موضع من كتابه أنّ "لا سبيل منه إلى بسط الكلام وتقسيمه فيما تضمّنه القرآن من أنواع البلاغة التي نصب لها العلماء أسماءها المعروفة: كالاستعارة والمجاز وغيرهما... فإنّ ذلك يُخرج الكلام مخرج التأليف..."¹.

3-3- الإعجاز الأسلوبي

لم يتطرّق الجرجاني إلى الإعجاز الأسلوبي، أو أسلوب القرآن، في حين أنّ الرافعي خصّص فصلاً كاملاً للحديث عن خصائص الأسلوب القرآني المعجزة (التكرار، تغاير الأسلوب بين مخاطبة العرب ومخاطبة اليهود، اتّساق التركيب...).

3-4- الإعجاز الصوتي

من الآراء التي عمل الجرجاني على رفضها ودحضها، هي أن يكون القرآن معجزاً في تناسقه الصوتي الكائن من ترتيب الحركات والسكنات، أو في توازن الإيقاع الصوتي في مقاطع آيات القرآن وفواصلها التي تشبه في انّزائها قوافي الشعر².

أمّا الرافعي فقد ذهب إلى عكس ذلك، إذ يرى أنّ الإعجاز اللغوي كامن في الانسجام الصوتي الناتج عن ترتيب الحروف في كلمات القرآن باعتبار مخارجها وصفاتها، وفي تلك الفواصل التي يكون أكثرها في القرآن من حروف المدّ واللين، وهي الحروف الطبيعية في الموسيقى نفسها³، وكذلك من تخيير القرآن للألفاظ ذات الجرس الموسيقي العذب، والعدول عن الألفاظ الثقيلة على السمع وتهيئة الحركات والحروف لها حتى تلائم التركيب.

3-5- الإعجاز في الكلمات المفردة

كرّر الجرجاني في مواضع كثيرة من الدلائل رفضه لكلّ الآراء القائلة بأنّ المزية والحسن في الكلام راجعة إلى الألفاظ وحدها، ونفى أن تكون الفصاحة والبلاغة والبيان

¹ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 209.

² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 387.

³ الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 178 .

أوصاف للفظ دون ائتلافه مع غيره¹، فهو لا ينظر إلى اللفظ إلا في التركيب ومن جهة المعنى فقط²، ولا يجعل له دوراً ومزية في الإعجاز.

في حين أولى الراجعي عناية كبيرة لألفاظ القرآن، إذ يقول فيها: "أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم فهي كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها...فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب..."³ إضافة إلى ذلك هو ينظر إلى إعجازها من ناحيتين:

الأولى: جمال وقعها في السمع، وذلك من خلال ما عرضه من أمثلة يبين فيها أن الجمال الصوتي للمفردات مقصود في القرآن.

والثانية: انساقها الكامل مع المعنى، ذلك أننا "إذا تأملنا الكلمة القرآنية...رأيناها تمتاز إلى جانب الإيقاع الخاص في السمع باتساقها الغريب مع المعنى، حتى لكأننا نحس بإطلالة المعنى المطلوب"⁴ من خصائص أصواتها.

خُصنا من هذه المقارنة إلى أن معظم الجوانب التي اهتم بها (الرجحاني) وهي الجانب التركيبي والجانب البياني، لم يهتم بها الراجعي، وصرف نظره عنها إلا أنه لم يعلن رفضه لها، في حين أن الجوانب التي رفض (الرجحاني) صلتها بالإعجاز اللغوي وهي الجمالية الصوتية وألفاظ القرآن وما صرف نظره عنه وهو الإعجاز الأسلوبي، نجدها تمثل محور الإعجاز اللغوي عند الراجعي.

وهذه الاختلافات في التحليل بين الرجلين، تقودنا إلى القول بضرورة صياغة نظرية متكاملة للوصول إلى مستوى شامل من الإدراك حول الإعجاز اللغوي، تشمل كلاً من: الأسلوب، الأصوات، علم التراكيب، علم البيان.

¹ ينظر: الرجحاني، دلائل الإعجاز، ص 57، 43، 63-66، 402، 467، 474، 539، 522.

² محمد عاشق مونغم، النظم بين عبد القاهر الرجحاني ومصطفى صادق الراجعي نحو رؤية متكاملة للإعجاز، جامعة دار الهدى لإسلامية، ص 167.

³ الراجعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 197.

⁴ أحمد جمال العمري، مباحث في إعجاز القرآن، ص 144.

خلاصة:

ومن خلال ما عرضناه في هذا الفصل وصلنا إلى مجموعة من النقاط أهمها:
حديث الرافعي عن إعجاز القرآن لم يكن محصوراً في الوجه اللغوي فقط بل هو حديث شامل لجوانب كثيرة ترتبط بالقرآن.

ينظر الرافعي أولاً إلى الإعجاز الأسلوبي، وذلك لأن أسلوب القرآن هو المظهر الذي يتجسد من خلاله إعجازه اللغوي، ثم يتعرض للتفصيل في أسرار ذلك الإعجاز، والتي تكمن في نظره في جانبين هما:

– الخصائص المسؤولة عن اتساق التركيب القرآني (مناسبة ألفاظه لمعانيه، السحر الذي يضيفه التركيب القرآني لألفاظه، أطراد إحكامه ونظمه في آيه وسوره على ما يتصرف فيه من المعاني والأغراض).

– الجمالية الصوتية التي استهوت نفوس العرب أول استماعهم للقرآن، وهي نظرة ليست جديدة، بل يستفيد فيها من إشارات السابقين، لكنه يضيف في ذلك تحليلات تتسم بالعلمية والموضوعية، تتم عن فهم وإمام بعلم التجويد والخصائص الصوتية للحروف.

خاتمة

خاتمة:

- بعد دراستنا لأهم قضايا الإعجاز اللغوي القرآني عند كل من عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي، توصلنا إلى جملة من النتائج يمكن إبرازها على النحو الآتي:
- 1- تمثل دراسات الإعجاز اللغوي في القرآن أكبر دليل على دور القرآن في نهوض وإثراء الدراسات اللغوية وخاصة النحوية والبلاغية، وعلى رأسها جهود إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني.
 - 2- تمثل مباحث علم التراكيب قضايا محورية، يُنظر من خلالها في الإعجاز اللغوي القرآني، وذلك ما يبينه عبد القاهر الجرجاني من خلال دعوته للنظر في المعنى منظوماً وبيان ما بين معاني الكلم من علاقات تركيبية ودورها في ترتيب الكلم في التركيب تبعاً لترتيب المعاني في النفس.
 - 3- بين الجرجاني الإعجاز اللغوي للنص القرآني عند توضيحه الفروق الدلالية للتركيب اللغوية والأبواب النحوية كالقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، وذلك بعدم التفريق بين النحو والبلاغة في دراسة التركيب اللغوية المختلفة من خلال ربط الأبواب النحوية بالمقام الذي أنشئت فيه، وهذا يعني دراسة القواعد النحوية في دأبها الاستعمالي.
 - 4- يُشكّل علمي التراكيب والبيان معاً في نظر الجرجاني المعيار الأنسب للحكم على جودة الكلام، من ناحيتين: ناحية بنائه وسبكه، ونواحي جماله وتأثيره في النفس.
 - 5- تطرق الرافعي لمقدمات في علوم القرآن وتاريخه وجمعه... قدّم بها حديثه عن موضوع الإعجاز القرآني والملفت للانتباه في هذا هو أنّ الرافعي استغل كل مبحث منها ليستنبط منه وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني.
 - 6- يعتبر الرافعي الأسلوب القرآني المظهر الذي يتجسّد من خلاله الإعجاز اللغوي في القرآن.

7- أثار الّرافي فكرة الإعجاز اللغوي القرآني، عن طريق النّظر في جماليته الصّوتية التي استولت على نفوس العرب، من خلال طرح فكرة أنّ الإيقاع الصّوتي مقصود في مفردات القرآن، منبّها إلى الوظيفة الدّلالية للصّوت وأثرها في النفس.

8- تمثّل جهود الّرافي دافعاً قوياً، لإعادة النظر في دراسة الإعجاز اللغوي من منطلق صوتي لدى الكثير من الدارسين المحدثين.

9- هذه الاختلافات الجوهرية في وجهات نظر الرّجلين، تقودنا إلى القول بشمولية البحث في الإعجاز اللغوي القرآني للقضايا التي تناولها كلّ منهما وهي: الأسلوب، التّركيب، البيان، الأصوات.

وفي نهاية المطاف نقدم التوصيات التالية:

- الحث على التّدبر في أسرار لغة القرآن ومعانيها، والاستفادة من الأمثلة التي رصدها الّرافي والجرجاني من أجل فهم أدق لمعاني القرآن.

- حث الباحثين على توجيه بحوثهم نحو مؤلفات القدماء حول مسألة الإعجاز اللغوي والاستفادة من لغتهم الراقية من أجل اكتساب ملكة لغوية جيدة.

- اقتراح التركيز على الإعجاز اللغوي القرآني كمقياس أساسي لطلبة قسم اللغة والأدب العربي.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أ- الكتب:

- أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربيّة، مكتبة مصر، القاهرة، (د ط)، (د ت).
- أحمد جمال العمري، مباحث في إعجاز القرآن، مكتبة الشباب.
- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ-1993م.
- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1393هـ-1973م.
- _____، بحوث لغوية، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، 1987م.
- الألويسي أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، نشر وتصحيح: محمود شكري الألويسي البغدادي، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).
- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، ط2.
- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: أنور أبو سليم، علي الشمولي، دار عمّار، عمان، ط1، 1412هـ-1991م.
- _____، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د ت).
- بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1377-1958م.
- بشير كحيل، الكناية في البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2004م.

قائمة المصادر والمراجع

- البقاعي برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والصور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ط)، (د ت).
- ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 2004م.
- الثعالبي أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، الكناية والتعريض، تح: عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، 1998م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1385هـ - 1966م.
- الجرجاني الشريف علي بن محمد بن علي الزين، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د ط)، 1413.
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1413هـ - 1992م.
- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية، ط1، 1991م.
- ابن جني أبي الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د ت)، ج2.
- حفني محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، اللجنة العامة للقرآن والسنة، 1970م.
- ابن حيان الأندلسي أبو عبد الله بن محمد بن يوسف الغرناطي، البحر المحيط في التفسير، مراجعة: صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2010م.

- الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
- الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، تح: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994م، ج2.
- الخفاجي أبو محمد بن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1402هـ - 1982م.
- داود محمد محمد، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار جياذ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1432هـ - 2006م.
- ذو الرّمة، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1995م.
- الرازي زين الدين أبو عبد الله، مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط5، 1420هـ-1999م، مادة(عَجَزَ).
- الرازي محمد فخر الدين، تفسير مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1998م.
- الرماني أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله وأحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، (د ت).
- الرضي محمد بن الحسن الأسترآبادي، شرح كافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، إدارة الثقافة والنشر، بجامعة الإمام محمد سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1993م.
- الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ - 1998م.

قائمة المصادر والمراجع

- _____، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط3 2009م.
- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة (في المعاني والبيان والبدیع)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط3، (د ت).
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، (د ط)، (د ت).
- سيد وقار أحمد حسيني، العلوم الفلكية في القرآن الكريم، تر: سمية زيتوني، دار طلاس، دمشق، 1996م.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، 1979م، ج2.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتيقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1394هـ-1974م، ج4.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، دار عمّار، عمان- الأردن، (د ط)، (د ت).
- الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1884هـ، ج14.
- طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، (د ط)، 1998.
- طفيل الغنوي، الديوان، تح: حسّان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

قائمة المصادر والمراجع

- عائشة عبد الرحمان، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط3، (د ت)، ج1.
- عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت.
- عبد الجبار فتحي زيدان، إعجاز القرآن الكريم، دار الوثائق، بغداد، ط4، 1438هـ-2018م.
- عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003م.
- عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم-دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة-، المكتبة العصرية، بيروت، 2008م.
- عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المثان، تح: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 2002م.
- عبد العزيز عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب بيروت، ط1، 1985م.
- عبد الفتاح فيود، دراسة بلاغية، دار المعلم الثقافية، مؤسسة المُختار، القاهرة، ط1، 1989.
- عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، ط1، 1974م.
- عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، دار الفكر، بدمشق، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، (د ط)، (د ت).
- علقمة الفحل، ديوان علقمة الفحل، تح: لطفي الصقال، ذرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 1389هـ-1969م.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن فارس أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د ط)، 1399 هـ-1979 م، مادة (ع ج ز).
- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1393 هـ-1973 م.
- القفطي جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952 م، ج2.
- ابن قيم أبي عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مجمع الفقه الإسلامي، جدة.
- الكتبي محمد بن شاكر بن أحمد، فوات الوفيات، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1951 م.
- كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968 م.
- لبيد بن ربيعة، الديوان، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2004 م.
- محمد إبراهيم شادي، شرح دلائل الإعجاز، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، المنصورة، ط2، 1434 هـ-2013 م.
- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تح: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق-سورية، ط4، 1987 م.
- محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1414 هـ-1993 م.
- محمد بركات حمدي أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، الأردن، ط1، 1984 م.
- محمد خلف الله، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1947 م.

قائمة المصادر والمراجع

- محمد رجب البيومي، مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن
- محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، الشركة الشرقية الكبرى للنشر والتوزيع، مطبعة
دار البصري، بغداد.
- محمد السيد شيخون، أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط)، (د ت).
- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن وإعجازه، مطبعة عيسى
البابي الحلبي.
- محمود سعد، حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه.
- المرادي الحسن بن قاسم ، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة،
محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1413هـ-1992م.
- مصطفى نعمان حسين البديري، الإمام مصطفى صادق الرافعي، مطبعة دار
البصري، بغداد.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي،
بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ-1973.
- _____، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تح: درويش الجويدي، المكتبة
العصرية، بيروت، صيدا، (د ط)، 1424هـ-2003م.
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط11، 2000م.
- ابن هشام، السيرة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1990م.
- يحيى العلوي بن حمزة بن علي بن إبراهيم اليماني ، الطراز المتضمن لأسرار
البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، 1914م.
- ب- المجلات والدوريات:**
- دفة بلقاسم، نماذج من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، -دراسة دلالية-، مجلة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جوان 2009.

- طاهر براهيم، بلاغة العدول الصرفي في القرآن الكريم من خلال تفسير التحرير والتنوير، مجلة حوليات، جامعة الجزائر 01، العدد 31، 2012م
- عزوز ياسين وقلايلية العربي، جهود مصطفى صادق الرافعي في بيان الإعجاز القرآني، مجلة لغة-كلام(مخبر اللغة والتواصل المركز الجامعي، غليزان، الجزائر، مج06، العدد02، 2020.
- كباس عبد القادر، النظم الموسيقي في القرآن، (قراءة في كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي نموذجًا)، مجلة لغة كلام، مخبر اللغة والتواصل، جامعة غليزان، الجزائر، مج08، العدد03، جوان2022م.
- ماجدة صلاح حسن، العدول الصرفي في القرآن الكريم، المجلة الجامعة، كلية المعلمين، العدد11، 2009م.
- محمد الحسن مختار بلال، أحمد عثمان فضيل، ملامح الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، المجلة العلمية لجامعة الإمام المهدي، العدد11، يونيو2018م.
- هارون نوح معابدة، التآلف الصوتي في القرآن الكريم، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، مج43، 2016م.
- ج- الرسائل الجامعية:**
- العبد حديق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 01، 2010/2011م.
- ابن نعوم سعاد، أسس الإعجاز القرآني عند مصطفى صادق الرافعي والدراسات، جامعة وهران، أحمد بن بلة، 2015/2016م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

الصفحة	الموضوع
	- إهداء
	- شكر وعرقان
أ	- مقدمة
الفصل الأول: الإطار النظري للإعجاز اللغوي القرآني	
8	أولاً: مفهوم الإعجاز
8	1- لغة
10	2- اصطلاحاً
11	3- مفهوم الإعجاز اللغوي
12	ثانياً: وجوه الإعجاز اللغوي القرآني
12	1- الإعجاز البياني
13	2- الإعجاز الصوتي
17	3- الإعجاز الصرفي
22	4- الإعجاز التركيبي
26	5- الإعجاز الدلالي
26	ثالثاً: شروط الإعجاز اللغوي القرآني
28	رابعاً: أهمية الإعجاز اللغوي
29	خامساً: مسالك السابقين في الإعجاز القرآني
الفصل الثاني: قضايا الإعجاز اللغوي القرآني عند عبد القاهر الجرجاني	
36	تمهيد
37	أولاً: نبذة مختصرة عن حياة عبد القاهر الجرجاني
40	ثانياً: دلائل الإعجاز القرآني عند الجرجاني

46	ثالثًا: الإعجاز اللغوي التركيبي عند الجرجاني
46	1- التقديم والتأخير
53	2- الذكر والحذف
58	3- الفصل والوصل
65	رابعًا: الإعجاز اللغوي البياني عند الجرجاني
65	1- بلاغة الاستعارة
72	2- بلاغة الكناية
76	3- بلاغة التشبيه والتمثيل
83	- خلاصة الفصل
الفصل الثاني: قضايا الإعجاز اللغوي القرآني عند مصطفى صادق الرافعي	
85	تمهيد
86	أولاً: نبذة مختصرة عن حياة مصطفى صادق الرافعي
90	ثانيًا: حقيقة الإعجاز عند الرافعي.
90	1- تعريف الإعجاز عند الرافعي.
92	2- وجوه الإعجاز غير اللغوي.
96	ثالثًا: الإعجاز اللغوي عند الرافعي.
97	1- الإعجاز الأسلوبي.
103	2- الإعجاز الصوتي.
120	رابعًا: مقارنة بين عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي
121	1- من حيث الهدف.
122	2- من حيث المنهج.
123	3- من حيث قضايا الإعجاز اللغوي.
127	خلاصة الفصل.

فهرس الموضوعات

128	الخاتمة.
130	قائمة المصادر والمراجع.
139	فهرس الموضوعات
142	ملخص البحث

المخلص:

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على أبرز آراء عبد القاهر الجرجاني ومصطفى صادق الرافعي في الإعجاز اللغوي القرآني ثمَّ المقارنة بينهما، وقد اعتمدنا في ذلك على المنهج الوصفي، وتهيكل بحثنا في ثلاثة فصول أمَّا الفصل الأوَّل فقد كان بعنوان الإطار النظري للإعجاز اللغوي القرآني، والفصل الثاني خصَّصناه للكشف عن قضايا الإعجاز اللغوي القرآني عند عبد القاهر الجرجاني، والفصل الأخير كان حول هذه القضايا عند مصطفى صادق الرافعي، وقد توصلنا في الأخير إلى مجموعة من الاختلافات تقودنا إلى ضرورة صياغة نظرية متكاملة للبحث في الإعجاز تشمل: الأسلوب، علم البيان، علم التراكيب، الأصوات.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز اللغوي، القرآن الكريم، عبد القاهر الجرجاني، مصطفى صادق

الرافعي.

Abstract:

This research aims to stand on the most prominent opinions of Abd al-Qaher al-Jurjani and Mustafa Sadiq al-Rafi'i in the Qur'anic linguistic miracle, and then compare them, we used in that the descriptive method, these research is composed of three chapters ,the first one is entitled the theoretical framework for the Qur'anic linguistic miracle, the second one is about the issues of the Qur'anic linguistic miraculousness of Abd al-Qaher al-Jurjani, and the last chapter was about these issues of Mustafa Sadiq al-Rafi'i, and we have finally reached a set of differences that lead us to the necessity of formulating an integrated theory for researching the miraculousness that includes: style, science of statement, science of structures, and sounds.

Key words: Linguistic miracles, the Holy Qur'an, Abdul Qaher Al-jurjani, Mustafa Sadiq Al-Rafii.